عنبُ تِشرينَ

إدوار أمين البستاني

بيت الحكمة



بيت الحكمة
hachette
أنطوان

عِنَبُ تِشرِينْ

قِصصٌ قَصيرةٌ

بيت الحكمة
بيروت

عنبُ تِشرينَ

إدوار أمين البستاني

الضّبط اللّغويّ والاستثمار التّربويّ: خليل السّيقلي
الغلاف، التّصميم والرّسم: ساندرا غصن
الدّاخل، الرّسوم: جوزف دكّاش

هاشيت أنطوان
تربية

عِنَبُ تِشرينَ

متابعة النّشر: نيكول عقيقي المصوّر

التّصميم المنهجيّ: Christie's *for printing and advertising*

ر.د.م.ك. 5 – 371 – 73 – 9953 – 978

النّاشر: Hachette Antoine

الطّبعة الأولى 2010

ص.ب. 0656–11، رياض الصّلح

11072050 بيروت، لبنان

العنوان التّجاريّ: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست

هاتف: 483513 – 1 – 961

قصّة

عِنَبُ تِشْرِينَ

بَوارِقُ الفجرِ الفِضّيِّ تَزحَفُ بِبُطءٍ على قِمَمِ «حَوْشِ اللَّوْزِ»... وَقَبلَ أَنْ تَشتعلَ رؤوسُ بيوتِها القرميدِ بِوَهَجِ الصُّبحِ المُطِلِّ، تَعالى الضَّجيجُ مِن بيتِ الأُستاذِ، وهَرْوَلَ الصَّبِيُّ إِلى أُمِّه مَذعوراً...

ومعَ أنَّ الّذي حصلَ لَم يكُنْ غريباً ولا اسْتِثْنائيّاً، لَم أكُنْ مُتوقِّعاً أَنْ يَحصُلَ بهَذهِ السُّرعةِ وبِهَذا التَّوْقيتِ.

حَملْتُ قرارَ التّعيينِ بِيَدي، وهَرْوَلتُ مِن مكتَبِ وِزارةِ التَّعليمِ إلى أَقربِ سيّارةٍ، وقلْتُ لسائِقِها:

- إِلى قَريةِ «حَوْشِ اللَّوْزِ».

وأَغمضْتُ عَينيَّ في المَقعدِ الخَلْفيِّ، ولَم أَفتَحْهُما إلّا على طريقٍ ضَيّقةٍ تَنتشِرُ على مَعابِرِها صِغارُ الحَصى،

وتَخُفُّ بها مَزالِقُ خَطِرَةٌ. وقالَ ليَ السّائقُ **مُتبرِّماً**:

ـ أَيُّ **داهِيَةٍ** بَعَثَتْ بكَ إلى هذهِ الأرضِ المَنْفِيّةِ؟!

قلْتُ:

ـ هيَ مَشيئةُ إدارةِ التّعليمِ.

فهَمْدَرَ بكَلِماتٍ غَيرِ مَسموعةٍ ـ لَم أَشُكَّ في أَنَّها كانَتْ لَعَناتٍ حادّةً ـ ومضَتِ السَّيّارةُ تَدِبُّ فوقَ الحُفَرِ... ولمّا أَطلَّتْ علَيْنا القريةُ قالَ لي:

ـ هَذهِ هيَ المَحروسةُ يا مُعلّمُ.

وسكَتَ هُنَيْهةً قبلَ أَنْ يَسألَ بِامتعاضٍ:

ـ أينَ تريدُ أَنْ تنزِلَ؟

أَشَرْتُ عليْهِ أَنْ يَسألَ عَن بيتِ المُختارِ؛ وما لبِثَ الصِّبْيَةُ أَنْ تَجَمْهَروا حولَ السَّيّارةِ في ساحةِ القَريةِ، ومَضى أحدُهم يَضرِبُ بِيدَيْهِ ويقولُ ضاحِكاً بِبَلَهٍ وبَلادةٍ مُنفِّرَيْنِ:

مُتبرِّماً: مُتأَفِّفاً، مُتَذَمِّراً.

الدّاهِيَةُ: المُصيبةُ.

ـ هَـذا هو المُعلِّمُ الجديدُ... هَـذا هو المُعلِّمُ الجديدُ!

دوَّرَ الصّبيُّ فَمَهُ، واتَّسعَتْ عَيناهُ، فارغَتَيْنِ، ثُمّ والى بَينَ التّصفيقِ بِيدَيْهِ وإطْلاقِ ضِحْكاتٍ مُنَرْفِزَةٍ، وهو يَكُشُّ بعضَ الذُّبابِ عَن وجهِهِ **البومِيّ**، فيما مَضى الباقونَ يَتأمّلونَ **سِحْنَتي** تحتَ غِشاءِ العَرَقِ والغُبارِ.

المَصْطَبَةُ الممتدَّةُ أَمامَ بيتِ المُختارِ ودُكّانِهِ المُجاوِرِ، مُجلَّلَةٌ بالعريشِ على **رِتاجٍ** مُرتفعٍ وأَعمِدَةٍ عاليةٍ. نادى المُختارُ زوجتَهُ صائحاً:

ـ تْنَيْن كازوزَة يا مرّوش.

وخَرجَتِ المرأةُ مِن وراءِ حاجزِ الدُّكّانِ تَقيسُني بِنظْراتِها المتفحِّصَةِ، تُبَصْبِصُ بها عَينانِ غارقتانِ تحتَ الشَّمْلَةِ الغامقةِ اللَّونِ. ودنَتْ مِنّا في جِسمِها المُدوَّرِ بَطيئةً عَرْجاءَ؛ وصَدرُ المُختارِ يَنتفخُ مِن الكرَمِ المُعتادِ،

البوميّ: البَشِعُ الّذي يُشْبِهُ وجهَ البومةِ.
السّحنَةُ: الهيئةُ واللّونُ.
الرّتاجُ: البابُ العظيمُ.

على جِسمٍ ناحِلٍ طويلٍ يعلوهُ طربوشٌ **أَغْيَدُ** مَلْوِيٌّ، على **أَرْيَحِيَّةٍ**...

وبعدَ مُجاملاتٍ و**هَذَرٍ**، قالَ لي وهو يَتحصَّنُ بِلَهجتِهِ الآمِرةِ:

ـ نَزورُ الآنَ بيتَ الأستاذِ!

وتَساءَلْتُ في خِفْيةٍ، فأدركَ ما بي، وقالَ ضاحكاً:

ـ لا يَليقُ بكَ أَنْ تَبدأَ الدّروسَ قبلَ زيارةِ الأستاذِ عبّود. وهو معلِّمُ القريةِ الوحيدُ مُنذُ ثلاثينَ سَنةً. لقدْ أُحيلَ أخيراً على التّقاعُدِ، وستَحِلُّ أنْتَ محلَّهُ... هَيّا بِنا... هَيّا...

لَم يُمهِلْني سُلطانُ القريَةِ الصّغيرُ، فمشَيْتُ وراءَهُ **مُذْعِناً**. وبرزَ الأستاذُ لِلقائِنا، في قَوامٍ مُعتدلٍ لَم يَنحنِ على رُغْمِ الأربعةِ والسّتّينَ، يَفيضُ تَورُّدُ وَجنتَيْهِ وحُمرةُ

الأَغْيَدُ: النّاعمُ المائلُ.

الأَرْيَحِيَّةُ: خَصلةٌ تَجعلُ الإنسانَ يرتاحُ إلى الأفعالِ الحميدةِ.

الهَذَرُ: الكلامُ الّذي لا يُعبأُ به.

مُذعِناً: مُنقاداً خاضعاً.

طربوشِهِ المتوهِّجِ... وتَكتكتْ سُبْحَتُهُ وهو يُشيرُ مُرحِّباً:

ـ تَفَضّلوا... تَفَضّلوا... زِيارةٌ كَريمةٌ.

وقَدَّمَني المُختارُ:

ـ الأستاذُ الحديدُ!

فَرَمَقَني بِنظْراتٍ فاحِصةٍ لَم تُدارِ استعلاءَهُ:

ـ تَشرَّفْنا... زيارةٌ كريمةٌ... زيارةٌ كريمةٌ!

ودَخلْنا داراً **مُقبّبةً** بعَقْدٍ حجَريٍّ، رُصَّتْ في جوانِبِها المَساندُ والمَقاعدُ والأَرائـكُ حَولَ مِدْفأةٍ مُطْفأةٍ، تَستعدُّ لِلشّتاءِ الزّاحفِ على الأبوابِ.

وأَمَـرَ سيّدُ الـدّارِ بأكوابِ الشَّرابِ، فَجاءَتْ بها العجوزُ. ثُمّ قالَ المُختارُ وهو **يَتلمّظُ** بِراحةٍ بعدَ الرّشْفةِ الأولى مِن شرابِ التّوتِ المُحَلّى:

ـ جِئتُ بالأستاذِ الجديدِ لِلزّيارةِ الواجبةِ.

فرَدَّ المُضيفُ مُنْتَشياً:

مقبّبةٌ: ذات قباب أي قناطر.

تلمّظ: مسح شفتيه بلسانه.

ـ لا يَفوتُكُم شيءٌ مِنَ الواجبِ!

وحاوَلْتُ أَنْ أقولَ شيئاً بَينَ هـذَيْنِ الجبلَيْنِ المُتحاورَيْنِ، فاهتزَّ كوبُ الشَّرابِ بِيَدي، وصَدرَ صَوتي مَخنوقاً:

ـ أَمَلي أَنْ أكونَ عندَ حُسْنِ الظَّنِّ!

ـ فيكَ الكِفايةُ يا بُنَيَّ!

وتَدخَّلَ المُختارُ مؤكِّداً ولاءَهُ لِلرّجُلِ الوَقورِ:

ـ إنّكَ تَتركُ فراغاً كبيراً يا أستاذُ، مِنَ الصَّعبِ أَنْ يَملأَهُ أَحدٌ مِن بَعدِكَ.

ـ هَـذه حالُ الدُّنيا يا شيخُ عَبّاسُ... هَـذه حالُ الدُّنيا... نحنُ خَدمْنا، والآنَ جاءَ دورُ غيرِنا...

ثمَّ أَردفَ بعدَ فترةِ سكوتٍ:

ـ الأيّام أيّامُ الشَّبابِ!

وندَّتْ عنِ العبارةِ الأخيرةِ رَحفةٌ ونَبرةٌ كئيبةٌ، لَم يَخْفَ على المُختارِ وَقْعُهما، فرَدَّ مِنْ فَورِهِ:

الوَقورُ: الجَليلُ المحترَمُ.

ـ ولَكنَّ البَرَكةَ، كُلَّ البَرَكَةِ، في الخِبرةِ وطولِ المِراسِ. أنتَ يا أستاذُ سَيِّدُها.

وجاءَتِ العجوزُ بالنَّوْبَةِ الثّانيةِ مِنَ الضِّيافَةِ، تَحملُ طَبَقاً مِنَ العِنبِ التِّشرينيِّ الأحمرِ النّاضِجِ، معَ **قِصاعٍ** فارغَةٍ ومَناديلِ طعامٍ. فنهضَ الأستاذُ يقومُ بواجبِ التَّكريمِ:

ـ هَذا عِنبُ «مَرْجِةِ السَّوْدا»... سيَعرِفُها أستاذُنا الجديدُ إذا طالَ بِهِ المَقامُ هُنا!

قـدّمَ عُنقوداً لِلمُختارِ. ثمَّ انْتقى آخَرَ لي، وهو يُعقِّبُ:

ـ عِنبُ تِشرينَ فيهِ حَلاوةُ الآخِـرَةِ، كُلْ مِنهُ ولا تَأْسَفْ! إنّهُ لذيذٌ!

كانَتْ غُصّتُهُ معَ العبارةِ الأخيرةِ **أَجْلى**. وكانَتْ حادّةً جارِحةً، **فازْدَرَدْتُ** معَ الحبّةِ النّاضجةِ شُعوراً

القِصاعُ: مفردُها القَصْعةُ وهي الصَّحفَةُ أو الصَّحنُ.
أجْلى: أوضَحُ.
ازدَردَ: بَلعَ.



بالضّيقِ والزّحمةِ والارْتِباكِ.

قَرّرَ المُختارُ أَنْ أَبيتَ أَيّاماً في بيتِهِ، رَيْثَما يَجدُ لي غُرفةً في أَحدِ بيوتِ القريةِ. وكانَتْ غُرفتي في بيتِ المُختارِ لاصِقةً بالدُّكّانِ، وتُطِلُّ مِن جِهةٍ أُخرى على بيوتِ القريةِ كلِّها. وقدْ أَوَيْـتُ إِلَيْها ذَلكَ المساءَ، أَستحضِرُ واجباتِ الغدِ، وأنا هُناكَ المعلّمُ الوَحيدُ، أوكِلَتْ إليَّ مَهامُّ المُديرِ والنّاظرِ والمعلِّمِ والمُحاسِبِ في آنٍ معاً، وأنا حديثُ العهدِ بشؤونِ المَدارسِ. وخُلاصاتُ النّظَريّاتِ في التّربيةِ وعِلمِ النّفسِ تَدورُ طازَجةً في رأسي، وتَمرُّ كالسّحاباتِ الشّفّافَةِ بهذهِ المُصادَماتِ الحديدةِ. أيُّ سلاحٍ اتّخذْتُ من دارِ المعلّمينَ؟! وأشياءُ الواقعِ وأحداثُهُ تَعْبُرُ بها سُحُبُ الآراءِ المتموِّجةُ مِن غيرِ أَنْ تُبدِّلَ أشكالَها. وقدْ كُنْتُ في البَدءِ أَظنُّني سيِّدَ الميدانِ، وها إنّني اليومَ بينَ المُختارِ المُتَسلْطِنِ، والأُستاذِ القَديمِ، أَشْبَهُ بِكُرَةٍ صَغيرةٍ خفيفةٍ يَتقاذفُها جبّارانِ مُثْبَتةٌ أَقدامُهما في الأرضِ.

وهَشَّ إليَّ المُختارُ في صَبيحةِ اليومِ التّالي قائلاً

بنَبرةٍ عاليةٍ:

ـ اليومَ يَبدأُ التّسجيلُ...

ثمّ بالنّبرةِ نَفْسِها:

ـ عَلَيْكَ أنْ تَكونَ باكِراً في المدرسةِ...

واسْتدارَ على عَقِبِهِ وخرجَ مِنَ البابِ، ثمَّ عادَ بعدَ دقائقَ بِرَكْوَةِ القَهوةِ، فوضَعها على الطّاولَةِ مع الفُنجانِ الفارِغِ وقالَ:

ـ أُفضِّلُ أنْ أكونَ مَعَكَ هَذا النّهارَ.

فصَبَّ ليَ القهوةَ في الفُنجانِ، وقُلْتُ:

ـ كمْ تَبعُدُ المدرسةُ مِن هُنا؟

تَجاهلَ المُختارُ سؤالي، و**أَرْدَفَ** وهوَ يَبسُطُ يدَهُ بالفُنجانِ:

ـ أنتَ غريبٌ، ولا تَعرفُ شيئاً عَن مَشاكلِ أهلِ القريةِ. ولا شكَّ أنّكَ تَجهلُ أخلاقَهُم... عَجِّلْ في ارتداءِ ثيابِكَ...

وعادَ مؤكِّداً:

أَرْدَفَ: استأنفَ وتابَعَ.

ـ سأكونُ مَعَكَ هَذا النّهارَ.

تحرّكَتْ وَرشةُ التّسجيلِ في القاعَةِ الوحيدةِ الّتي تتألَّفُ منها المدرسةُ، والأَهالي يَأتونَ وُفوداً، فيَستريحُ بعضُهم على المقاعدِ الخشبيّةِ المخلّعةِ، ويحيطُ بعضُهمُ الآخَرُ بِطاولتي الضّيّقةِ، وقدْ جلسْتُ إليها أُنفِّذُ ما يُمْليهِ عنيّ المُختارُ، خِلالَ رؤوسِ الوُقوفِ المحيطينَ بي، مِنَ الأَوامرِ الصّارِمةِ:

ـ سجّلْ فُلاناً الفُلانِيَّ... عُمرُه كَذا... ابنُ فُلانٍ! ثمَّ أَسمَعُ صوتَ المُختارِ مُزَغرِداً:

ـ معَ السّلامَةِ! انْتهى...

ـ اللهُ يُديمُكَ يا شيخُ عبّاسُ.

ويُزَمْجرُ الشّيخُ أَحياناً، صائحاً **كالأونْباشي** الغَضبانِ:

ـ يا جَماعةَ رَواقْ... خلّونا نِشْتغلْ!

ثمَّ يُرْدِفُ بصوتٍ معتدلٍ:

ـ متأسّفٌ يا بو مِرْعي... إبنُكَ لا محلَّ له في

الأونْباشي: رتبةٌ عسكريّةٌ تعني العريفَ.

المدرسةِ. أنتَ تعرفُ أنَّهُ طائشٌ يُفْسِدُ الصّفَّ ويُعطِّلُ على الآخَرينَ. دماغُهُ لا يَحمِلُ عِلْماً. دعْهُ يَشتغلْ معَكَ في مَشحرةِ جِرْجِسَ... أليسَ جِرْجِسُ صديقَكَ ونَجِيّكَ؟ اللهُ يُديمُ الوِفْقَ بَينَكَ وبَينَهُ!

ويَصيحُ صوتُ بو مِرْعي مُحْتدّاً:

- أنا ابني قَبلَ الجميعِ... شو يا جماعَهْ؟ الظّاهرْ في إيدْ وإجْر؟

وفي نهايةِ الأمرِ يُوفَّقُ المُختارُ إلى صرفِ بو مِرْعي بالَّتي هيَ أَحسَنُ، ويُخْمِدُ صُراخَهُ، فيَخرجُ هَذا الأخيرُ **مُطَبْطِباً**، كما يُوفَّقُ في إِرضاءِ مَن أرادَ إرضاءَهُ، ونِكايةِ مَن أرادَ نِكايتَهُ مِنَ الأهالي، حَتّى لقَدْ تحوَّلَتِ المدرسةُ إلى دكّانِ سياسةٍ قَرويَّةٍ، و**استَحَلْتُ** أنا في هَذه العمليَّةِ سِكْرِتيراً أميناً لِسيِّدي المُختارِ.

نجيُّ الرَّجُل: مَن يحفظُ سرَّه.
مُطَبْطِباً: مُتمتِماً بصوتٍ ناتجٍ من تلاطُم شفتيه.
استحلْتُ: تحوَّلْتُ، صِرْتُ.

ولمّا انتهى النّهارُ قُلتُ لِصاحبِ الأمْرِ والنَّهْيِ:

ـ بَلَغوا السّبعينَ يا شيخُ عبّاسُ!

فرَمَقَني بنِظْرةٍ مُستفْسِرةٍ و**صارمةٍ**:

ـ شو يَعني؟

ـ العددُ كثيرٌ، والمقاعِدُ لا تَكفي!

ـ وشو عْلَيْه؟ يَقْعُدُ كلُّ ولدَينِ على مَقعدٍ واحدٍ... نحنُ هُنا أهلٌ بِلا تكليفٍ.

أَقفلْنا في أَصيلِ ذَلكَ اليومِ راجعَيْنِ، والشَّمسُ تَنحدرُ حمراءَ مستديرةً في الأُفُقِ الغربيِّ، وطربوشُ الشَّيخِ عبّاسٍ يَميلُ معَها بِشَرّابتِهِ السّوداءِ في خُيَلاءٍ... وهو أَشَمُّ **العِرْنينِ** ـ كما يقولونَ ـ منتفِخُ **الأَوداجِ**، مُتَحقِّقٌ النَّصْرَ في هَذه الجَوْلاتِ الَّتي جالَها خلالَ النَّهارِ بنجاحٍ...

بدَتْ بيوتُ «حَوْشِ اللَّوزِ» تحتَ أَشعَّةِ الشَّمسِ

صارمةٍ: قاطعة.
العِرْنينُ: الأنفُ.
الأَوداجُ: مُفردُها وَدْجٌ وهو عِرْقٌ في العُنقِ ينتفِخُ عند الغضب.

البُرتقاليّةِ صُفوفاً متدرِّجةً مِنَ التَّوهُّجِ، تَعكِسُ نوافذُها الزُّجاجيَّةُ سِهامَ النّورِ الطّائشةَ... وخِصْلاتُ الضَّوءِ تَنْسلُّ مِن غُرفتي، وتَنسحبُ مِنَ النّافذةِ الغَربيّةِ على كَدَرٍ وكآبةٍ، وقدْ رانَ سُكونٌ لمْ أكُنْ أعرِفُه! سُكونٌ عميقٌ، وموجِسٌ تُداخِلُهُ طَلائعُ الظُّلمةِ الزّاحفةِ عليّ مِن كلِّ مكانٍ في الغرفةِ. وإذْ طُرِقَ البابُ طَرَقاتٍ خفيفةً مُتَواليةً، خرجْتُ أَفتحُ لِلقادمِ المنتظِرِ، فإذا هو صبيٌّ في السّابعةِ أو الثّامنةِ، تَلَقّاني ضاحكاً ضِحكةً **سَمْجةً بليدةً**. عَرفْتُ فيه ابنَ المُختارِ، وتَذكّرْتُ وجهَهُ المُشوَّهَ باللُّزوجَةِ، ذلكَ الّذي تَلَقّاني معَ صِبْيةِ القريةِ في اليومِ السّابقِ، حينَ صفّقَ بِيَديْهِ، وذبَّ الذُّبابَ عَن أَنفِهِ، وَضحِكَ صائحاً:

«هذا هو المعلِّمُ الجديدُ!»...

الكَدَرُ: عدمُ الصّفاءِ.

رانَ: سادَ وسيطرَ وامتدَّ.

موجِسٌ: مُثيرٌ للشّكِّ والقلقِ.

السّمْجُ: القبيحُ الثّقيلُ.

البليدُ: العييُّ، ضدُّ الذّكيِّ والفطِنِ.

قالَ لي الصّبيُّ **بفَظاظةٍ**:

ـ اخرجْ إلى الأستاذِ... فهو بانتظارِكَ...

وأشارَ بيدِهِ إلى جِهَةِ الدُّكّانِ. ثمّ مضى غيرَ مُكْترِثٍ يَنظرُ ويصرُخُ بِلا مُبرِّرٍ، فنفرَ عَنْه نَظري **بمَقْتٍ** إلى جِهَةِ الدّكّانِ. وما هِي إلّا لحَظاتٌ حتّى خَرجَ الأستاذُ عبّود يُجفِّفُ بمنديلِهِ حبّاتٍ مِنَ العَرقِ يَنضَحُ بها جبينُه العريضُ، معَ أنَّ الطَّقس لـمْ يَكنْ حارّاً في ذَلكَ الـمساءِ التِّشرينيِّ الرَّطْبِ. وقرأْتُ في وجهِ الأستاذِ أخباراً كئيبةً، فاستقبَلْتُه باشّاً مرحِّباً، وحَيَويّتُه النّاضجةُ الّتي شَهِدْتُها أَمسِ قدِ استحالَتْ إلى **قنوطٍ** وانكسارٍ. وعندَما دخلَ غُرفتي بطيئاً بَدا لي ثقيلَ الهِمّةِ؛ على خلافِ يومِ أمسِ. ثمّ التفَتَ نحوَ البابِ حَذِراً مِن أنْ يكونَ خَلْفَهُ أحدٌ. ودَنا منّي يقولُ في خُفوتٍ:

ـ أَخْشى أنْ أكونَ أزعجْتُكَ بهَذه الزّيارةِ الطّارئةِ!

الفظاظةُ: الخشونةُ في الكلامِ وسوءُ الخُلُقِ.
المقْتُ: الكُرْهُ.
القُنوطُ: اليأسُ.

ونَدَّتْ عَنْه ابتسامةٌ ابتلعَتْ أَقْنعةَ الرِّضى الَّتي تَذرَّعَ بها مُجاملاً. فسُرِرْتُ بِهَذا التَّداعي، مُنتقِماً لكِبْريائي الجَريحِ أمسِ، فقُلْتُ:

ـ قُدومُكَ شرفٌ لي ومَسرّةٌ.

وفي ضَوءِ اللَّمَساتِ الأخيرةِ مِن شُعاعِ الشَّمسِ الغاربةِ ظهرَتْ تَقاسيمُ وَجهِ الأستاذِ، وقدْ خُيِّلَ إليَّ أنَّه شاخَ كثيراً بينَ أمسِ واليومَ، ورَأيْتُ أنَّ أَوْشِحَةَ البارحةِ **تَنْهَتِكُ** عَن ذَلكَ الوجْهِ، أَوْشِحَةَ المَرَحِ الحَيَويِّ والتَّفاؤلِ والارتياحِ؛ وتَبدَّلَتْ **قَسَماتُه**، فيما أَخذَتْ عَيناهُ تَفقدانِ بَصيصَهُما، وتَعبُرُ بِهِما الهَزائمُ والسَّحائِبُ والألوانُ المتقلِّبةُ بسُرعةٍ.

أوقَفَني **الذُّهولُ** حِيالَ هَذا الوَجهِ الجديدِ تِمثالاً جامداً، إذْ سَرَتْ إليَّ طَلائعُ العَدوى، وأصبحَ بِمقدارِ كلٍّ منّا أنْ يَسمعَ الآخرَ ويُحاورَهُ بغَيرِ كلامٍ.

قالَ وهو يَستديرُ ليَجلِسَ على الأَريكةِ:

تَنهتِكُ: تَنشقُّ فيبدو ما وراءها.

القَسماتُ: ملامحُ الوجهِ.

الذُّهولُ: غيابُ الرُّشدِ والوَعيِ.

ـ جئتُكَ لأمرٍ خاصٍّ، أَرجو أَلّا يَطَّلعَ علَيْهِ ثالثٌ بَينَنا!

وطرَقَ بعَصاهُ طَرَقاتٍ على أرضِ الغُرفةِ، مؤكِّداً قولَهُ. فأَجبْتُه وقدْ زادَ سُروري بهَذه الأَهمّيّةِ الّتي أَحاطَني بها بغَيرِ انتظارٍ:

ـ ثِقْ بأنّكَ تُلْقي بسرِّكَ في موضِعٍ كَنينٍ.

وعادَ يَطرُقُ بعَصاهُ على أَرضِ الغُرفةِ الصّليبَةِ، وهو يقولُ:

ـ مَتى ستَذهبُ إلى «بيروتَ»؟

قلْتُ حائراً:

ـ لسْتُ أَدري يا عمّيَ الأُستاذَ عبّود.

ـ ومَتى يَجيءُ مفتّشُ الوِزارَةِ إلى هُنا؟

ـ أنتَ تعرِفُ أَنَّ المفتّشينَ لا يَأتونَ إلّا كاللُّصوصِ!

ـ يا حَوْلَ اللهِ!

وازْدادَتِ الاِبتسامةُ الصَّفراءُ اليائسةُ اتِّساعاً على

الكَنينُ: المستورُ.

فمِهِ، وقالَ متنهِّداً:

ـ أتَعرِفُ ما مَعنى صداقةِ الأشياءِ يا بُنيَّ؟

وسكَتَ قبلَ أَنْ يُكمِلَ، وكأنَّهُ يُلقي قصيدةً داخليّةً تُعذِّبُ قلْبَهُ:

ـ والتَّعلُّقِ والعادةِ، والأُلفةِ؟ وأُمورٍ شِعْريَّةٍ أُخرى؟... أَتفهَمُ ما أقولُ؟

نَظرْتُ إلَيْهِ بأَسىً، وكانَ بِوُدّي أَنْ أخفِّفَ عَنْه. ولَكنَّ عِباراتِ الـمُجامَلةِ كلَّها لا تُطفِئُ هَذه الجَمَراتِ الكئيبةَ الّتي تُحرِقُ الرَّجلَ الشَّيخَ... فتَرَكْتُه يُكمِلُ حديثَهُ مِن غَيرِ أَنْ أُقاطِعَهُ، لَعلَّهُ يُنفِّسُ عَن قلبِهِ بالكلامِ.

ـ كانَ هَذا اليومُ أَثقلَ أيّامي وَطْأةً وعَذاباً. نَهضْتُ باكراً ولَم أَكُنْ أَدري ما أَفعلُ. ألشُّعورُ بالفَراغِ يُلقي بي في مَتاهاتٍ مُتتابعَةٍ، وجيوبٍ عَدَميَّةٍ مُتداخِلَةٍ بغَيرِ انتهاءٍ. وكيفَ أَعيشُ أَشَلَّ هَكذا، بعدَ ثلاثينَ عاماً مِنَ الحَيَويّةِ والموَالَفةِ؟! غُرفةُ الصّفِّ والمقاعدُ، وأبناءُ القريةِ جيلاً بَعدَ جيلٍ، والسّنْديانةُ الّتي غرسْتُها، والحوشُ الّذي مسّدْتُه ورَصّصْتُه، وجَمعيّةُ الأدبِ والخَطابةِ الّتي

أَسّسْتُها، ورسائلُ أَهلِ القريةِ ومَعاريضُهم... هذا هو عالَمي الّذي كنتُ أَحيا فيه، وفجأةً انسلَخْتُ لأَعيشَ في الفراغِ الثّقيلِ... أَتفهَمُ ما أَقولُ؟

ـ نعمْ يا عمّيَ الأستاذَ عبّود!

وآنَسَ مِن مُوافَقتي تَشجيعاً على المضيّ. **فحَبَكَ** قائلاً:

ـ تَعلمُ ما مَعنى أَنْ أَترُكَ هذا كلَّهُ، فجأةً، بغَيرِ تمهيدٍ؟

قالَها بحَسرةٍ، وعَيناهُ تَغْرَوْرِقانِ في حُمرةٍ مجروحةٍ.

و**تَهالَكَ** جسدُهُ على الأَريكةِ مُتعَباً، ثُمَّ مَضى يقولُ:

ـ لَم أَكُنْ أَظنُّ أنَّ الإحالةَ على التّقاعُدِ بهَذه القَسْوةِ حتّى اختبرْتُها. فقَدْ كُنْتُ أَتمنّى دائماً أَنْ أَصِلَ إلى الرّاحةِ بعدَ العناءِ والعملِ. وأخيراً ذُقْتُ ما مَعنى الرّاحةِ

حَبَكَ: شدَّ كلامَهُ وأَحكَمَهُ.

تَهالَكَ: تَساقَطَ وارْتَمى.

الدّائمةِ... أتَعلَمُ ماذا يُسمّونَ الموتَ في طُقوسِ الكنائسِ؟ أتَعلَمُ؟.. إنَّهم يُسمّونَهُ الرّاحةَ الأَبديّةَ... وقدْ أصابوا! إنَّ الرّاحةَ موتٌ!

«أنتُمُ الشّبابَ لا تَعرفونَ مَعنى ذلكَ. وتَتَّهمونَنا نحنُ المُكتمِلينَ بالهَذَرِ والجُنونِ، عِندَما نَبحثُ في تِشرينِ الحياةِ عَن عادةٍ أو هوايةٍ نقتُلُ بها الشُّعورَ بالرّاحةِ. أمّا أنا فقَدْ فقَدْتُ الهواياتِ والعاداتِ خارجَ عالَمي الأَليفِ! فماذا أعيشُ بعدَ اليومِ؟... بماذا أَعيشُ؟ أتَفهَمُ ما أقولُ؟»

قلْتُ مِن غيرِ أَنْ أُغيِّرَ لَهْجتي:

ـ نعمْ يا عمّيَ الأستاذَ عبّود!

ـ أنا اليومَ سلطانٌ أُزيحَ عَن عرشِهِ مِن غيرِ أَنْ يُبعَدَ عَنْه. سِجني الكبيرُ بَيتي، والقريةُ والفضاءُ والطّبيعةُ كلُّها، والعدَمُ. ولمْ تَبقَ الدُّنيا كلُّها تَتّخِذُ شكلَ الأشياءِ الأَليفةِ، لأَنَّها بدأَتْ تُملأُ بالغَراباتِ البَشِعَةِ والمُفاجآتِ الكئيبةِ. وقدْ حاولْتُ في هَذا اليومِ المَريرِ أَنْ أَتَّخذَ لي عملاً، أَنْ أَعتنيَ بالزّهورِ، أَنْ أَنكُشَ الأرضَ، أَنْ أَقرأَ

في كتابٍ، أَنْ أَستمعَ إلى حكاياتِ العجوزِ؛ ولَكِنّي لَم أستطِعْ. هَذا كلُّه هيّنٌ ولذيذٌ معَ البقاءِ في دائرةِ العادةِ، أمّا الخُروجُ مِنْها فصَعْبٌ على مَن كانَ مِثلي يا بُنيَّ... لِذا جئْتُ أَسألُكَ مَتى تَهبِطُ إلى «بيروتَ»... أو مَتى يَأتي المفتِّشُ؟

وأَخرجَ مِن جيبِهِ رسالةً ودفعَها إليَّ قائلاً:

ـ هَذه رسالةٌ أَوَدُّ أَنْ أَبعثَ بها إلى الوِزارةِ أَطلُبُ فيها عَوْدتي إلى مَنصِبي بغَيرِ راتبٍ. لا، لَم يَبقَ لي بالرّاتبِ مَطمَعٌ يا بُنيَّ!.. كَفاني اللهُ خَيراً، والصَّبيُّ في «أميركا» في أَهنأِ حالٍ، وأَرزاقي تَكفيني للعيشِ مَعَ العجوزِ، وتقاعُدي زيادةُ خَيرٍ وبَرَكةٍ.

قلْتُ مُحاولاً إخراجَ الحديثِ عنْ مِحوَرِهِ:

ـ زادَكَ اللهُ خَيراً يا عمُّ.

ـ قُلْتُ لكَ لا أَطمعُ في الرّاتِبِ... ولَكنّني لا أُريدُ أَنْ أموتَ!

جحَظَتْ عَيناهُ جُحوظاً دلَّ على هَولِ المَأساةِ، وازْدَرَدَ ريقَهُ مِن حَنْجَرةٍ جافّةٍ، ثمّ نهضَ وعَيناهُ

تَتَرَقْرقانِ بـماءِ الحُزنِ. وأَحسسْتُ به عالَماً تَخَلْخَلَتْ مَحاورُه، ومَضى يَدورُ على غَيرِ نِظامِهِ. وسأَلَني قبلَ أنْ يُغادرَ:

ـ أَلا تَعتقدُ أنَّهُم يَقبلونَ طلَبي يا بُنيَّ؟

فأَجبْتُ متأسِّفاً:

ـ لسْتُ أَدري يا عمّيَ الأستاذَ، ولَكنْ...

تعلّقَتْ نَظَراتُه متشبِّثةً بالكَلِماتِ المنتظَرَةِ على شفتيَّ الحائرَتَيْنِ. وقالَ بتوَسُّلٍ:

ـ ماذا؟... ألا يَقبلونَ؟...

ـ لسْتُ أَدري هلِ القَوانينُ تَسمحُ بهَذا.

ـ القَوانينُ!!. القَوانينُ؟!

جفَّ حَلْقُه معَ العبارةِ الأخيرةِ جَفافاً يوحي بأنَّهُ باتَ غيرَ قادرٍ على مَزيدٍ مِنَ الكلامِ... دوَّرَ جَسَدَهُ وانطلقَ مِنَ البابِ، فلحِقْتُ به أُريدُ أَنْ أُؤاسيَهُ، فندّتْ

متشبّثةً: متمسّكةً، متعلّقةً.
آسى فلاناً: شاطرهُ أو قاسَمَهُ الأسى أي الحزنَ والهَمّ.
ندّ: نفر وذهب وشرد، وندّتِ الكلمةُ: شذّت، خرجَتْ في غيرِ محلّها.

عنّي عِبارةٌ مجروحةٌ بِغَيرِ اقتناعٍ:

ـ حاوِلْ على كلِّ حالٍ...

فالتفَتَ إليَّ ولَم يُجِبْ، فعَكَفْتُ على ذِهْني أَستجمِعُ فيه ما أقولُه لهُ حتّى أُؤاسيَهُ حقّاً وأُخفِّفَ عنْهُ، لعَلَّ بَريقاً مِنَ الأملِ يُنجِدُهُ... ولَكنَّهُ كانَ قدِ ابتعدَ كثيراً وأَوْغلَ في عتمةِ المساءِ.

في صَبيحةِ اليومِ التّالي كانَ الأستاذُ عبّود قدْ نهضَ باكراً في ظلِّ السِّنْديانةِ بِباحةِ المدرسةِ يُطقطِقُ بسُبْحتِهِ على إيقاعٍ غريبٍ، وكأنَّهُ إيقاعُ مَسيرةٍ مِن عالَمٍ آخَرَ، بطيءٍ ومُخيفٍ، وقدْ أدارَ ظهرَهُ للشَّمسِ الطّالعةِ، ووجهَهُ إلى جِدارِ المدرسةِ يَغمرُ حجارتَهُ بنَظْراتِهِ الحالمةِ.

ومرَّتْ بهِ وفودُ التّلاميذِ تُحيّيهِ، فلَمْ يُجِبْ، وظلَّ غارقاً في تأمُّلاتٍ بعيدةٍ. وبَدا لي كالجبلِ تُغادرُهُ آخِرُ غِلالةٍ من غِلالاتِ النّهارِ الذّهبيّةِ، فاستعاضَ عنْها

أوغَلَ: دخلَ وأبعدَ وتوارى.



بجَسدٍ كالطَّيفِ الأبيضِ الجليلِ، واكْتَسى جسماً نورانيّاً متموّجاً بأَغربِ المَعاني. كانَ بِوُدّي أَنْ أقولَ له شيئاً، إلّا أَنَّني احترَمْتُ صمْتَهُ وجُمودَهُ وتأمُّلاتِهِ. فعَبَرْتُ به صامتاً مُستغرِباً كيفَ يَمرُّ الإنسانُ بأطوارٍ مُدهِشةِ الغرابةِ، وكيفَ يَأبى الرّاحةَ مَن كانَ مثلَ الأستاذِ عبّود، ويرفُضُ الاسْتسلامَ لِدَعَةِ العيشِ وهُدوئِه.

مَكَثَ طيلةَ ذَلكَ الصّباحِ قاعداً في ظلِّ السِّنْديانةِ عميقاً، جامداً، متأمّلاً، كتِمثالٍ مَهيبٍ. ولمْ يُغادرْها إلّا عندَ الظَّهيرةِ. ثمّ عادَ إليْها بعدَ ذَلكَ، وظلَّ حتّى الـمَغيبِ.

لمْ تُغادرْني صورتُه طيلةَ اللّيلِ، فبِتُّ حَرِجاً به، مُتضايقاً عَنْه، خاشعاً في أعماقي لهَذا الرَّبطِ العجيبِ الّذي يَربِطُ الإنسانَ بالأشياءِ. حتّى إذا زحفَ الفجرُ بَبوارقِهِ الفِضّيّةِ على قِممِ «حَوْشِ اللَّوزِ»، وقبْلَ أَنْ تَشتعلَ سقوفُها القرميدُ بِوَهْجِ الصُّبْحِ المُطلِّ، تَعالى الضَّجيجُ مِن بيتِ الأستاذِ. وهَرْولَ الصَّبيُّ ابنُ المختارِ

الدَّعَةُ: السّكينةُ والرّاحةُ.

فغابَ دقائقَ معدودةً، ثمَّ **مرقَ كالسَّهمِ** مِن قربِ نافذَتي، ومَضى يَرتمي في **حُجْرِ** أمِّهِ خائفاً مذعوراً، وهو يردِّدُ:

ـ أمّي!.. أمّي!.. الأستاذُ ماتَ!

مَرَقَ السَّهمُ: إخترَقَ الهدَفَ لسُرعتِهِ.

الحُجْرُ والحِجْرُ: حِضْنُ الإنسانِ.

قصة

الصُّراخُ والطّائرُ الملوّنُ

ـ يومٌ قاحلٌ!

قالَ «الجَرادُ» هَذه العِبارةَ، وقفزَ لاهِثاً نحوَ الطّريقِ الصّاعدةِ بَينَ الشّوكِ، صَدرُه كعُلبةِ المِنْفخِ، ويَداهُ ورِجْلاهُ أربعةُ خيوطٍ دقيقةٍ تَتحرّكُ.

كانَ العُشبُ المُبْتَلُّ بالنّدى يَنعصرُ تحتَ أحذيتِنا السّتّةِ الغليظةِ؛ والرّبيعُ مِلْءُ فمِ الوادي، يَتنفّسُ برائحةِ الصّعترِ والسّنْديانِ والأعشابِ الكثيرةِ الّتي لا نعرِفُ أسماءَها.

وأرادَ ثالثُنا أنْ يُمازحَ الرّجُلَ القصيرَ القامةِ، فقالَ:

ـ الجِفْتُ أكبرُ مِنكَ يا «جَرادُ» فكيفَ تُصيبُ به الطّيْرَ؟

فرَكَ الرَّجلُ الصّغيرُ عَينَيْهِ، وأَطبقَهُما، ثمَّ فتحَهُما، في وجهٍ كصفحةِ القِرْشِ، مُتحفِّزاً للجوابِ القارصِ:

ـ ولَكنَّ السّلاحَ في يدِ أمثالِكَ يَجرحُ... ألا تَعرفُ المَثَلَ؟

تَقطَّعَتْ ضِحْكاتُنا معَ اللُّهاثِ المُتسارعِ في النَّسَماتِ الخُضرِ، ونحنُ نرمُقُ الرّجلَ الصّغيرَ وقدِ استحالَ شبَكةً مِنَ الأعصابِ. وأجابَ الرَّجلُ الثّالثُ:

ـ ليسَ عَبثاً أنْ سَمَّوْكَ «جَراداً».

وأَردفَ «الجرادُ» بِلا مُبالاةٍ:

ـ الفِرّي اليومَ قليلٌ.

كانَتْ لِمَّتُه المُشتعِلةُ شَيباً تَبرُقُ تحتَ الشَّمسِ، فيَبدو مثلَ **أبي بُرَيْصٍ** بِحركتِهِ الدّائمةِ. ثمَّ مَضى في طريقٍ ضيّقةٍ يَستقِلُّ بها، وهو يُتمتِمُ كَلماتٍ غريبةً.

وأَرسلْتُ إلى صاحِبي نِظرةَ استفهامٍ، فأجابَني ضاحكاً:

اللِّمَّةُ: الشَّعرُ المُحاوِزُ شَحمةَ الأُذُنِ.

أبو بُرَيْص: نوعٌ من الزّواحفِ يُشبهُ الجرذون ولكنّه أصغرُ حجماً.

ـ لا تأبَهْ له! هَذه عادتُه دائماً.

مَضَيْنا نَحمِلُ الشَّمسَ على أكتافِنا، فتَجري في عروقِنا دماءُ الطَّبيعةِ الصَّبيّةِ، وتَنسكبُ في آذانِنا زقزقَةُ العصافيرِ الهاربةِ بينَ الغصونِ الخُضرِ.

قُبّةُ الجرسِ بَيرقٌ ممزَّقٌ، والرّنينُ يَنبعثُ مِنْها ويتقطَّعُ على الأُفقِ.

ـ «السّلامُ عليكِ يا مريمُ»...

أَطبقَ الرَّجلُ الثّالثُ جَفنَيْهِ للصّلاةِ، وغَـرقَ في صَمتِ العبادةِ. تذكَّرْتُ الشّهرَ المَرْيميّ، فشَدَّ النَّدمُ على عُنقي كحبلٍ غليظٍ. أريدُ أنْ أقولَ شيئاً أَهربُ به مِن قَبي الـمفقودِ. شَفَتاي يابستانِ، وحِذائي غارقٌ في الوَحلِ. وصَمَتَ الجرسُ، وخَرِسَتِ الأَطيارُ، وأَوشكَتِ الشّمسُ أنْ تَنزلقَ.

ولَمّا تفقَّدْتُ الرَّجلَ كانَتِ الغابةُ تبتلِعُه، وتبتلِعُني الوَحشةُ.

فجأةً عَلا في الوادي صُراخٌ وَحْشيٌّ يُمزِّقُ الأُفقَ كالنَّمِرِ الجريحِ، فتَولّاني الرُّعبُ، وهـزَزْتُ كَتِفَيْ

صَديقي:

ـ ما هَذا؟

ـ لا شيءَ... الرّجلُ الصّغيرُ.

ـ وما بِه؟

ـ لا شيءَ.

ـ وماذا إذاً؟

وابتسمَ بِلا مُبالاةٍ:

ـ لا تأبَهْ له. هَذه عادتُه.

كُنْتُ مُتيقّناً أنَّ شيئاً خطيراً قدْ حصلَ، كما تغضَبُ السّماءُ قبلَ الطّوفانِ...

ولمّا طلعَ «الجَرادُ» مِنَ الغابةِ، كانَ له وَجهٌ آخَرُ، كأنّهُ مزّقَ أقنعَتَهُ جميعاً وألقى بها في الغابةِ...

لماذا أَحببْتُ ذَلكَ الإنسانَ الّذي تَقطنُ في عَينَيْهِ الصّغيرتَيْنِ غَرابةٌ كبيرةٌ؟!

لَم أَستطِعْ أَنْ أُجيبَ نَفْسي. ولَمْ يُجِبْني شَيءٌ مِن ذَلكَ الإنسانِ الغريبِ. فقَدْ أَسْبلَ يدَيْهِ النّحيلَتَيْنِ على

تيقّن الأمر: علمهُ وتحقّقهُ.
أسبل: أرخى.

جسمِهِ الصّغيرِ، وسارَ أمامَنا يتأمّلُ شيئاً غيرَ مُحدَّدٍ.

وهمَسْتُ في أذُنِ صديقي:

ـ أيَرانا الآنَ؟

ـ لا. فمِنْ عادتِه أَنْ يُصابَ بمِثلِ هَذه العَوارِضِ. لا تَقلَقْ، سيَعودُ إلى نفسِهِ بعدَ حينٍ.

تَدافعَتْ أفـواجُ الفِرّي بعدَ ذَلكَ اليومِ، وانتشرَ الصّيّادونَ في سهولِ القمحِ المُقْترِبِ مِنَ النُّضْجِ. ولَكنَّ «الجَرادَ» لَم يَظهرْ، على رُغمِ تَفَقُّدي إيّاهُ وإلحاحي في السّؤالِ عَنْه.

وحدَّثَني صَديقي عَن أَطوارِ «الجَرادِ»؛ وأنَّهُ سُمِّيَ هَكذا لأَنَّهُ جاءَ القريةَ معَ مَجيءِ الجَرادِ، فأقامَ فيها وأهلُها لا يَعرفونَ عَن أصلِهِ شيئاً. فعَمِلَ أجيراً، ثمَّ مضى يَعملُ في مَعصرةِ الزَّيتونِ، حتّى جمَعَ ثمنَ بيتٍ صغيرٍ اشتراهُ مِن أَحدِ المهاجِرينَ، فأقامَ فيه، وصارَ يعيشُ مِن صُنعِ سِلالِ القصَبِ. ومِن هُنا أَخذَتْ حياتُه تَزدادُ غُموضاً معَ العُزلةِ عَنِ النّاسِ، فتَغلَّفَتْ حياتُه بالأساطيرِ.



كانَ مِن شأنِ هَذه الأخبارِ أَنْ تَزيدَ فُضولي. فقصَدْتُ الرَّجلَ الصَّغيرَ إلى بيتِهِ أُريدُ أَنْ أَستعيمَهُ سرَّ انزوائِه عَنّا بعدَ تلكَ الرِّحلةِ، وسببَ صُراخِهِ المُفاجئ في الغابةِ.

كانَ أَثاثُ بيتِهِ نظيفاً على خِلافِ ما كنْتُ أَتوقَّعُ، واستَقبلَني ببرودةٍ لا تَخلو مِنَ المَحبّةِ. وكانَ مُنزَوِياً كئيباً، مَبيءَ الوَجهِ بالشَّوقِ إلى شيءٍ مجهولٍ. وقُلْتُ «للجَرادِ»:

- لماذا لَم تخرُجْ مِن بيتِكَ بعدَ تلكَ الرِّحلةِ إلى الصَّيدِ؟ وقفزَتْ عَيْناهُ مِن خمولِهِما الأوَّلِ، وأجابَ مستغرِباً:

- مَن قالَ لكَ إنّي لَم أخرُجْ منَ البيتِ؟

- كنْتُ أَسألُ عنْكَ فلا أَجِدُكَ.

أَخذَ إبريقَ الفَخّارِ وقدَّمَهُ إليَّ:

- خُذْ واشرَبْ! هذا ماءٌ **مُسحَّرٌ**. إنَّهُ طيِّبٌ لذيذٌ.

وطَرَحْتُ عليْهِ عدداً مِنَ الأسئلةِ لَم يُجِبْ عَنْها، بلْ

مسحَّرٌ: موضوعٌ خارجاً عند السَّحَرِ في الجرّةِ أو الإبريقِ الفخّارِ ليُصبحَ بارداً.

ظلَّ سادراً ينظُرُ من خَصاصِ النّافذةِ الوحيدةِ في بيتِهِ إلى شيءٍ في الخارجِ. كانَ يَبدو مترقِّباً لنُقطةٍ ما في الأُفقِ. فلَمّا صارَتِ الشَّمسُ في محاذاةِ النّافذةِ نهضَ مُسرعاً. وقال لي بارْتباكٍ:

ـ أَعتذرُ إلَيْكَ. لا أَستطيعُ أَنْ أستقبلَكَ بعدَ الآنَ.

وخَرجْتُ مِنَ البيتِ فخَرجَ مَعي. وقالَ لي ونحنُ نَهبِطُ الطّريقَ:

ـ أَرجو أَنْ أَحظى به اليومَ. لَدَيَّ شعورٌ قويٌّ بهَذا.

ـ تَحظى به؟

ـ نعمْ.

واستغرقَ في صمتٍ مضطرِبٍ.

لَم أَفهمْ قصدَ «الجَرادِ» مِن هَذهِ العباراتِ. إلّا أَنَّهُ استطرَدَ قائلاً قبلَ أَنْ نَفترِقَ عِندَ أَوّلِ الغابةِ:

ـ هَلْ سَبقَ لكَ أَنْ أحبَبْتَ؟

قلْتُ:

سادراً: ممدَّداً.
الخَصاصُ: الفُتحةُ.

ـ نعمْ. سَبقَ لي هَذا مِراراً.

قالَ:

ـ ولَكنَّكَ بالتّأكيدِ لمْ تُحِبَّ مِثلي. فهَلْ سَمعْتَ برَجلٍ أَحبَّ طيراً مِن الطّيورِ، وامتلأَ قلبُه بالكآبةِ؟

ظَنَنْتُه أُصيبَ بعارضٍ مُفاجئٍ شبيهٍ بما أَصابَهُ أثناءَ كانَ مَعَنا في الغابةِ. وكانَتْ أَصداءُ خُطُواتِنا تَفصِلُ بَينَنا، حتّى تَغلغلَ في الغابةِ. واختفى بَينَ الأشجارِ.

ـ إِذا كانَتِ الشّمسُ أُمنيّتَكَ فلا تَقبِضْ علَيْها لِئلّا **تَستحيلَ** رَماداً!

كانَتْ هَذه أولى الكَلِماتِ الّتي قالَها «الجَرادُ» عِندَما أَفاقَ مِن غَيبوبتِهِ. وجَسْنا حولَهُ صامتينَ. كُنّا ثلاثةً مِن رُفقاءِ الصّيدِ، وقدْ سمِعْنا صُراخاً شبيهاً بصُراخِ «الجَرادِ» في المرّةِ الأولى، **فهَرَعْنا** إِلى مصدَرِ الصّوتِ، فرأَيْنا «الجَرادَ» مَغمِيّاً علَيْهِ. وكانَ بيتُه قريباً مِنَ الغابةِ فحمَلْناه إِلَيْهِ. واستدارَتْ عَيناهُ، وتنقّلَتْ بَيننا نَظَراتُه:

تَستحيلُ: تتحوّلُ.
هرعْنا: أسرعْنا باضطرابٍ.

ـ أُريدُ ماءً. اعطوني الإبريقَ.

ونهضَ رفيقي ليَأتيَهُ بإبريقِ الفَخّارِ. وقامَ الآخَرُ يُعِدُّ له فُنجاناً مِنَ الخِطْميّ. وأَشارَ «الجَرادُ» إليَّ أَنْ أَقتربَ مِنْه، ثمَّ همسَ في أُذُني بـمرارةٍ:

ـ أتدري أنّي حَظيتُ به؟

ـ مَنْ؟

ـ الطّائرُ الملوَّنُ.

وظَنَنْتُ هَذه المرَّةَ أَنَّهُ يَهذي أيضاً. فتَرَكْتُه خوفاً مِن أَنْ أُثقِلَ عليْهِ. وحضرَ فُنجانُ الخِطْميِّ فرَشفَ مِنْه رَشَفاتٍ معدودةً ووضعَهُ جانباً. ونَظرْتُ إلى صديقي بإشفاقٍ، فقالَ لي مُطَمئِناً:

ـ لا تَخَفْ! هَذه عادتُه. إِنَّهُ يُصابُ بالنُّقطةِ فيُغْمى عليْهِ، ثمَّ يعودُ إلى ذاتِهِ بعدَ حينٍ.

وتسرَّبَتِ الكَلِماتُ إلى «الجَرادِ» فنَهضَ عَنِ المَقعدِ الخشبيِّ وصرخَ فينا:

ـ لا! ليسَ هَذا صحيحاً!

الخِطْميُّ: نوعٌ من الأعشابِ يُتداوى به.

وعادَ يَجلِسُ على الـمَقعدِ وصَدرُه مُضطرِبٌ بلُهاثِهِ الـمُتَسارِعِ:

ـ كُنْتُ أقَعُ في حالِ النُّقطةِ... هَذا صحيحٌ... أمّا الآنَ فالأمرُ مختلِفٌ.

«لقدْ شُغلْتُ بهَذا الطّائرِ الملوّنِ الّذي رأيتُه أوّلَ مرّةٍ فجأةً على غصنِ زيتونٍ. كانَ طائراً عجيباً، في جَناحَيهِ ألوانٌ ما رأيْتُ مِثلَها في أيِّ شيءٍ. وكانَ له صوتٌ يُشبِهُ النّداءَ الرّفيقَ الحنونَ. فلَمّا رأيتُهُ أصابَني مزيجٌ مِنَ الخوفِ والفرحِ. فهَرْولْتُ إلَيْهِ صارخاً بذَلكَ الصّوتِ الّذي سَمِعتُموهُ، فأَجفلَ الطّائرُ، وخَفقَ بجَناحَيْهِ، وشالَ عَنِ الغصنِ فطارَ في اتِّجاهِ الشّمسِ.

«وأَحسسْتُ ذَلكَ اليومَ أنَّ لي أمَلاً قدْ هربَ مِن بَينِ يَديَّ. لا تَضحكوا، فأنا أقرأُ خلْفَ أقنعةِ وجوهِكُم عَلائمَ الهُزْءِ. إنَّ شيئاً في العالَمِ لا يُمكنُه أنْ يُوازيَ ذَلكَ الشّعورَ الـمَجّانيَّ الّذي شدَّني بذَلكَ الطّائرِ الفريدِ.

شالَ: إرتفعَ.



وأمضَيْتُ أيّامي التّاليةَ، لا همّ لي إلّا العثورُ علَيْهِ مرّةً أُخرى. فكُنْتُ، كلّما دنَتِ الشّمسُ مِن النُّقطةِ الّتي كانَتْ فيها يومَ لَقيتُهُ، أَخرُجُ مِنَ البيتِ وبي أمَلُ لقائِهِ. لقدْ أَصبحَ ذَلكَ الطّائرُ وَسْواسي الوحيدَ... حتّى لَقيتُهُ اليومَ في الموضِعِ نفسِهِ».

كانَتْ كَلِماتُه الأخيرةُ قدِ اختلطَتْ بمرارةٍ عجيبةٍ. فهتفَ الجميعُ:

ـ الحمدُ للهِ على تحقيقِ أُمنيَّتِكَ.

وتنفَّسَ «الجَرادُ» كالفأرِ المريضِ. وقالَ لنا خافقَ الصّدرِ:

ـ ليتَني لَم أعثُرْ علَيْهِ!

وتشابَكَتْ نَظَراتُنا استغراباً لهَذا الجوابِ. وأَكمَلَ «الجَرادُ» بلحنٍ حزينٍ:

ـ لَو لَم أَلقَ الطّائرَ الملوّنَ لَظلَّ، حتّى الآنَ، بالنّسبةِ إليَّ، أمَلاً لذيذاً، يَشْغَلُ آخِرَ أيّامي، ويَملأُ وَحشتي

الوَسواسُ: الهاجِسُ الّذي يغلِبُ عليهِ التّشاؤمُ.

بالشَّغَفِ والتَّرقُّبِ. أمّا الآنَ فقَدْ لَقيتُه... واستطَعْتُ أنْ أَقبِضَ عليْهِ، وهو يَحُطُّ فوقَ الغُصنِ. فلَمّا وضعْتُ علَيْهِ يدي خفقَ بجناحَيْهِ خِفقةً سريعةً، ثمَّ ألوى عُنقَهُ باسْتِسلامٍ.

وسرَتْ بينَنا ابتساماتٌ تَسخَرُ مِن هَذا الاهتمامِ السّاذَجِ، فلَفَّنا الرَّجلُ بنظرةِ لَومٍ شديدٍ. ثمَّ مَضى يَبكي كالأطفالِ:

ـ لقدْ أَصبحَ ذَلكَ الطّائرُ الغريبُ شيئاً آخرَ مُنذُ أَنْ قبضْتُ علَيْهِ، أصبحَ شيئاً أليفاً... لَم تبقَ له تِلكَ الغَرابةُ وذَلكَ السِّحرُ. لقدْ أرخيْتُ قَبضَتي عَنْه فلَم يُقاوِمْ و لَم يَهرُبْ، بلْ سقطَ على الأرضِ وتنفَّسَ، ثمَّ مرّغَ عُنقَهُ ومِنقارَهُ على حِذائي. وتحوَّلَ الشَّغفُ به إلى شَفَقةٍ علَيْهِ... أنا لَم أعرفِ الشَّفَقةَ في حياتي، ولا قبِلْتُ مِن أَحدٍ أَنْ يُشفِقَ عليَّ... فلماذا أُبيحُ لنفسي أَنْ أُشْفِقَ على الآخرينَ؟ ساعتَئذٍ تذكَّرْتُ حكمةً قديمةً كانَتْ جَدّتي الغَجَريّةُ الرّاقصةُ تردِّدُها على مَسْمعي، قبلَ رحيلِنا إلى «لُبنانَ»: «إنْ كانَتِ الشّمسُ أُمنيّتَكَ فلا تَقبِضْ علَيْها

لِئَلّا تَستحيلَ رَماداً...»

قالَ «الجَرادُ» هَذه الكَلِماتِ، ثمَّ نظرَ إِلَيْنا ونحنُ مأخوذونَ بِـما يَقُصُّ علَيْنا. ثمَّ انفجرَ بالضْحِكِ، وطَلبَ إلَيْنا أَنْ نَجلِسَ حَوالَيْه. ففعَلْنا. وقامَ مِن مجلسِهِ يُحدِّثُنا بحديثِ الصَّيدِ، ويَسألُ عَن أفواجِ الفِرّي، ويُنادي كلبَهُ الجالسَ عندَ البابِ، وكأنَّ شيئاً لَم يكُنْ... ثمَّ صفَّقَ بيَدَيْهِ، وأَشارَ إِلى رفيقِنا الجالسِ بقُربِهِ أَنْ يُعطِيَهُ الإبريقَ. فشرِبَ، وتلمَّظَتْ شفَتاهُ، ثمَّ مسحَ الـماءَ عَن ذقنِهِ وعادَ يقولُ:

ـ إذا كانَتِ الشّمسُ أُمنيَّتَكَ فلا تَقبِضْ علَيْها لِئَلّا تَستحيلَ رماداً.

وعلَتْ في الجوِّ قهقهةٌ ملأَتِ الدّارَ.

قصة

بَعدَما تَساقطَ الثَّلجُ!

لَم يكُنْ شيءٌ يُنذِرُ بأنَّ الثَّلجَ سيَسقُطُ، معَ أَنَّ النّسيمَ الباردَ كانَ يَأتي معَ النّهرِ، ويَسعُ أقدامَنا الصّغيرةَ، ويَخرُقُ أثوابَنا؛ ونحنُ في شُغلٍ عَن أصواتِ الباعةِ البعيدةِ في الأحياءِ، بهديرِ النّهرِ وجَعْجَعَتِهِ المُتَواصلةِ، تَنْسلُّ بَينَهُما، مِن حينٍ إلى آخَرَ، صَيحاتُنا الضّائعةُ في الفضاءِ.

ولمّا قَدِمَتِ المَرأةُ لَم نكُنْ نَنتظِرُ مِثلَ هَذه المغامرةِ الشّائقةِ. فجُهْدُ ما كُنّا نَطمحُ إلَيْهِ، عِندَما نَغرِسُ أقدامَنا في الرّملِ الرَّطِبِ، أَنْ نَلهوَ فيه بالبحثِ عَنِ «**الزَّلَطِ**»

الزَّلَط: لفظةٌ عاميّةٌ تَعني الحَصى النّاعمةَ المَلْساءَ.

و«الصَّفَدِ» وسائرِ أنواعِ الحَصى الثّمينةِ الملوّنةِ، نلهو بها، ونَصنعُ الحُلِيَّ، ونَعقِدُ العقودَ لأخَواتِنا وأترابِهنّ.

غيرَ أنَّ الصّورةَ كانَتْ رائعةً. والّذي أذهلَنا مِن المَرأةِ وُقوفُها أمامَنا فجأةً، وبسرعةٍ. فقَدْ أوقفَتْ كلَّ حركةٍ مِن حَولِها. ولا نَزالُ حتّى الآنَ نَتساءلُ عَنِ النّهرِ هَلْ تَجَمَّدَ ماؤهُ، وخفَتَ خريرُهُ، وتَوقَّفَ اندفاعُ سَيْلِهِ معَ تلكَ الوِقْفَةِ الّتي وَقفَتْها المَرأةُ بإزائِنا، فحجَبَتْ عَنّا رؤيةَ الضَّفّةِ الأُخرى؟

والصّورةُ تَقْدُمُ إلَيْنا الآنَ معَ الذِّكرياتِ العتيقةِ، مَبهوتةَ الجوانبِ، غامضةَ التّفاصيلِ، وكأنَّها تفاصيلُ رسومٍ تتحرّكُ فوقَ نسيجٍ مِن صوفٍ أخضرَ. فقَدْ كانَ العشبُ يومَذاكَ يَملأُ الضَّفّتَيْنِ.

كانَ رأسُها مجلَّلاً بمِنديلِ حريرٍ ممزَّقٍ، بقيَتْ على أطرافِهِ خَرَزاتٌ متفرّقةٌ مِن زينةٍ **سالفةٍ**. وأمّا الوَجهُ ففي قَسَماتِهِ لقاءٌ بينَ **أخاديدِ** الهَرَمِ ورَوْنقِ الشَّبابِ: في

سالفة: سابقة.
الأخاديدُ: الحُفَرُ أوِ الأثْلامُ المستطيلةُ.

تَجاعيدِهِ الكثيرةِ تَشِعُّ حيَويّةُ العافيةِ، وكأنَّها طيّاتٌ لِطاقاتِ الحياةِ. وقدْ بَرزَتْ عَيْناها، وتَفرّقَتْ أسنانُها عَن ضِحْكةٍ غريبةٍ، وانسدَلَ فوقَ جسمِها البَدينِ رداءٌ يَصلُ إلى الأرضِ ويُغطّي القَدَمَينِ، ويَبدو أنَّهُ مِن أرياءِ قبائلِ النَّوَرِ الّتي مِن عادتِها أنْ تَـمُرَّ بساحلِ الشّمالِ في فصلِ الشّتاءِ، ثمّ تنزَحُ إلى أعالي الجبالِ في الصّيفِ.

وصاحَ مروانُ بالرُّفقاءِ، مشيراً إلى موضِعِ المَرأةِ:

ـ انظروا، انظروا إنَّها هُنا!

تَوقّفَتِ المرأةُ عَن أيِّ حركةٍ، ولَم تُجرْ جواباً، فكأنَّها أرادَتْ أنْ تُحْدِثَ الدّهشةَ الّتي تَجلُبُ إلَيْها الأنظارَ. وجَمدَتِ الأنظارُ فيها، وخيَّمَ الصَّمتُ.

رَفعَتِ المرأةُ إحدى رِجْلَيْها وأسندَتْها إلى صخرةٍ ناتئةٍ بَينَ الأعشابِ، فظَهرَ طرفُ **سَراويلِها** الطّويلِ المُلوّنِ بألوانٍ زاهيةٍ كثيرةٍ، وهو مَعقودٌ إلى ما فوقَ القَدَمِ حَولَ الكاحِلِ. ثمّ أدخلَتْ يدَها في جَيبِها وخضَّتْ ما فيها، فصدَرَ صوتٌ مِن الخَشخشةِ الجافّةِ.

السَّراويلُ: لباسٌ يستُرُ النِّصْفَ الأسفلَ مِنَ الجسمِ.



وأَخرجَتْ في يدِها قِطَعاً مستديرةً مِن سِداداتِ قَناني «الكازوزةِ» وبَسَطَتْها أمامَنا قائلةً:

- انظروا يا أَولادي هَذه النّقودَ. لقدْ **مَنَّ بها عَليّ** بعضُ المُحسِنينَ!

وأَرسلَتْ مِن فمِها ضِحكةً مَسحوبةً على مَدى ضَفّتَيِ النّهرِ، ثمّ تابعَتْ بلَحنٍ حزينٍ:

- كُنْتُ **أَتوسّلُ إلى** المارّةِ في المدينةِ أَنْ يُحسِنوا إليَّ بشيءٍ مِنَ المالِ أَشتري بهِ دواءً لابْني المريضِ، وأَعودُ إلى القريةِ حيثُ أُقيمُ قبلَ أَنْ يَسقُطَ الظّلامُ. وقدْ أَحسنوا إليّ بهَذه النّقودِ، فتعالَوْا وانظُروا هلْ تَكفيني؟

واستدارَتْ على ذاتِها وكأَنّها تُريدُ أَنْ تَبكيَ. فملَكَتْنا الحَيْرةُ جميعاً، إلّا مروانَ الّذي كانَ أكبرَنا سِنّاً، فهتفَ بنا كالقائدِ الصّغيرِ:

- انتبِهوا! هَذه حيلةٌ!

وتَحلَّقْنا حولَهُ نَستفسِرُهُ ونُعطيهِ **أَوْلويّةَ** الـرّأيِ،

مَنّ عليْه بكذا: أَنعمَ عليْه به مِن غيرِ أَنْ يتعبَ.
توسّلَ إلى فلانٍ: عمِلَ عملاً تقرّبَ به إليْه.
الأَوْلويّةُ: الأفضليّةُ.

ونَعترفُ لهُ بالتّقدُّمِ علَيْنا في بابِ حَلِّ الألغازِ. فقالَ:

ـ اسمعوا! لقدْ جاءَتْ هَذه المرأةُ الشِّرّيرةُ تَسْتَدِرُّ عطْفَنا علَيْها.

وقَفزَ واحدٌ مِنّا صائحاً:

ـ ولَكنّها لَم تفعَلْ هَذا، بلْ جاءَتْ كعاصفةٍ مِنَ الخوفِ!

فأَسكَتَهُ الرُّفَقاءُ الباقونَ، ونَظروا إلى مروانَ يُشجّعونَهُ على المِضيِّ في شرحِ رأيِهِ وعَرْضِ خِطّتِهِ. فقالَ:

ـ جاءَتْ بهَذا المَظهرِ حتّى تُوهِمَنا بأنَّها خُدِعَتْ بسِداداتِ زجاجاتِ «الكازوزةِ»، وأنَّها ظَنّتْها نقوداً. وليسَ هَذا في الحقيقةِ معقولاً. إنَّ امرأةً في سنِّها لا تُخدَعُ مثلَ هَذا الخِداعِ.

وارتفعَ أَحدُ الأصواتِ:

ـ ولماذا فعلَتْ هَذا؟

فردَّ مروانُ بثقةٍ أَخذَتْ تَزدادُ:

ـ لأنَّها تريدُ منّا أنْ نُشفِقَ علَيْها ونَمنحَها ما نَملِكُ مِنَ النّقودِ.

كانَتْ خَشخشةُ السّداداتِ لا تَزالُ تصدُرُ عَنِ المَرأةِ كصوتٍ أَبَحَّ، وهِي تَقفِزُ قُربَنا، كأَنَّها في انتظارِ نهايةِ **المُداوَلةِ** بينَ أركانِ الحربِ الصِّغارِ. ومدَّتْ يدَها مرَّةً أُخرى **بجُمْعٍ** مِن تلكَ السّداداتِ المعدِنيّةِ الّتي بَهَتَ التّلوينُ عَن صَفحتِها وتباعَدَتْ بُقَعُه، فظَهرَتْ كصُوَرٍ مصغَّرةٍ عَن وجهِها المجعَّدِ النّاضرِ في آنٍ معاً؛ وقالَ القائدُ الصّغيرُ:

ـ لَدَيَّ خِطَّةٌ أَقترِحُها على الرُّفقاءِ!

وتعاكَسَتِ الأَنظارُ وهِي تَتَّجِهُ إِلَيْهِ بسُرعةٍ. فتابَعَ:

ـ علَيْنا أَنْ نُحابِهِ المَكْرَ بالمَكْرِ. فدَعوني أَتوَلَّ الأمرَ وأُنفّذِ الحيلةَ، على أَنْ تَبقَوْا صامتينَ تُردِّدونَ ما أقولُه، أو تُشيرونَ بالموافَقةِ مِن غيرِ أَدنى اعتراضٍ!

ثمَّ دَنا مِنها بخُطواتٍ جريئةٍ وقالَ:

ـ هَذه ليسَتْ نقوداً كما تَزعَمينَ! ولَكنَّها قِطَعٌ مِنَ الجواهرِ الثّمينةِ والتُّحَفِ النّفيسةِ، ذاتُ قيمةٍ مرتفعةٍ

المُداولة: تبادُلُ الرّأي والمُشاورةُ.

الجُمْعُ: القَبْضةُ مِن الشّيء.

جدّاً. وقدْ فَقَدَها أحدُ كبارِ الأثرياءِ في المدينةِ. لقدْ سرَقْتِها منْهُ بِلا شكٍّ، فالوَيلُ لكِ إذا رَآها رجالُ الشُّرطةِ معَكِ، فمَصيرُكِ عندَئذٍ السِّجنُ المؤبَّدُ.

وتَراجعَ القائدُ الصّغيرُ خُطْوتَيْنِ، وهتَفْنا نحنُ مِن ورائِهِ بالموافقةِ على ما يقولُ. فذُعِرَتِ المَرأةُ أيّما ذُعرٍ، وجَحظَتْ عَيْناها مِن وجهِها بَينَ الاستغرابِ والطَّمَعِ. ثمَّ أخفَتِ السّداداتِ في جَيبِها، وكتمَتْ علَيْها كِتماناً شديداً. وصاحَتْ:

ـ لا! إنَّها نقودٌ! مجرَّدُ نقودٍ! أُقسمُ باللهِ أنَّها نقودٌ. وقدْ منَّ عليَّ **السّابلةُ** بها إحساناً لوَجهِ اللهِ.

فقالَ القائدُ الصّغيرُ:

ـ إنْ كنْتِ صادقةً في ما تَزعَمينَ فهاتيها إلَيْنا نَمْنَحْكِ ما يَكفي ثمنَ الدّواءِ وأجرةَ السّيّارةِ لِعودةٍ إلى القريةِ.

وصِحْنا جميعاً، وقدْ تبدّدَ الخوفُ نهائيّاً مِن وجوهِنا:

ـ هاتيها، هاتيها، هاتيها...!

السّابلةُ: المارّةُ.

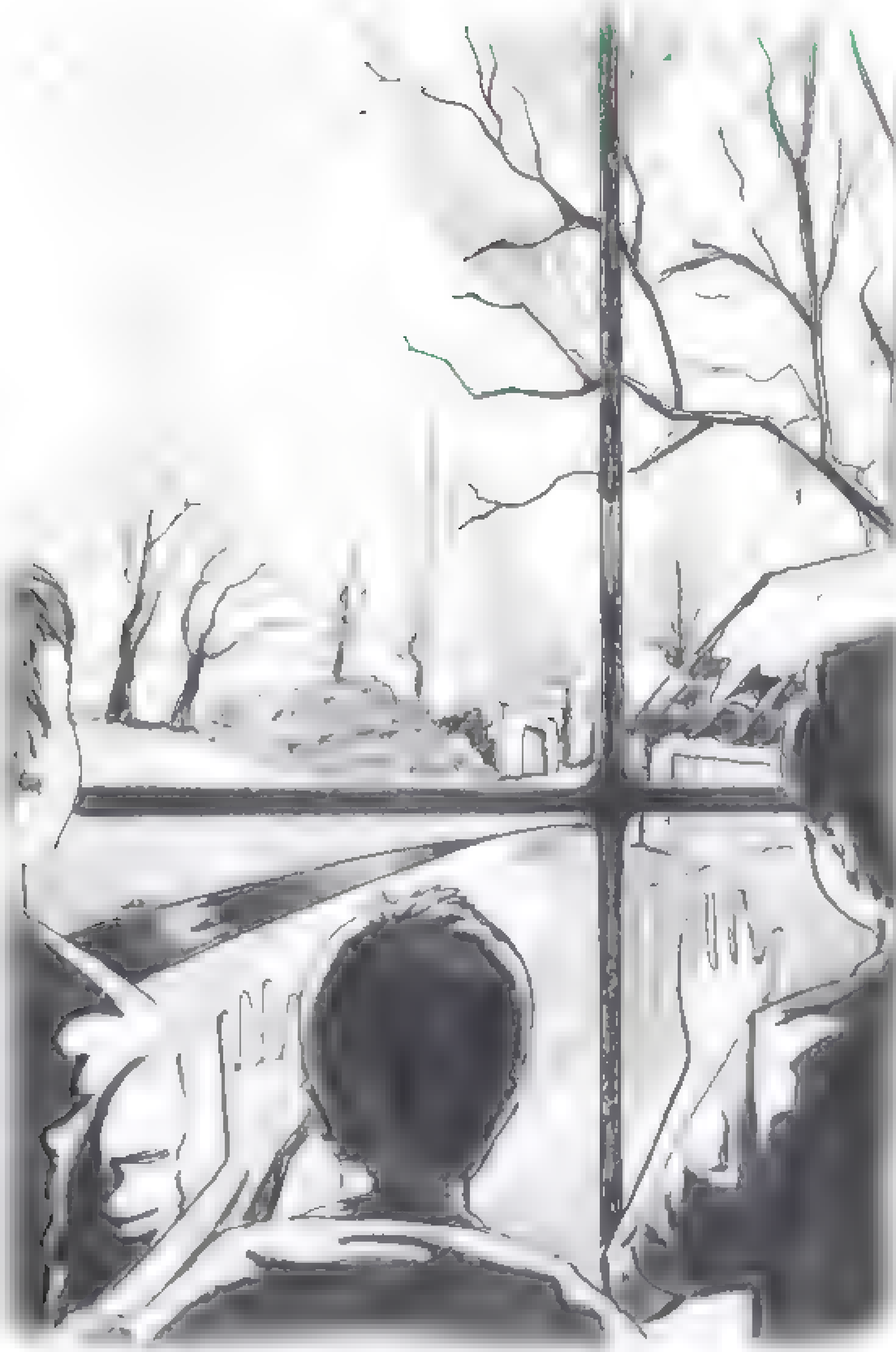
فقفزَتِ المَرأةُ إلى الـوراءِ، وزادَتْ حِرْصاً على السّداداتِ الصَّدِئَةِ، وأَخـذَتْ تَشُدُّ علَيْها في جَيبِها حتّى كادَ رِداؤها يَتمزَّقُ. وقالَتْ:

ـ لا أُريدُ أنْ أَمنحَكم إيّاها. إنَّكُم صِبيةٌ أشرارٌ!

وحاوَلَتْ أَنْ تَفِرَّ هاربةً مِنّا، فلحِقْنا بها بالعِصيِّ الصّغيرةِ وقُضبانِ اللَّيمونِ اليابسةِ. ولـمّا ابتعدَتْ عَنّا رشَقْناها بالحجارةِ حتّى توارَتْ بعيداً بَينَ الأشجارِ، وهي تُهرولُ مذعورةً. وعُدْنا مساءَ ذَلكَ اليومِ إلى بيوتِنا مُتهلِّلينَ، وقدْ بُحَّتْ أصواتُنا الصّغيرةُ مِن كَثرةِ الصِّياحِ.

لَمْ نـكُنْ نحنُ نَعرفُ الثّلجَ في المدينةِ. فمُنذُ وُلِدْنا إلى ذَلكَ اليومِ، لَم يكُنِ الثَّلجُ قدْ سقَطَ على السّاحلِ. ولَكنَّ البرْدَ كانَ قارساً مساءَ ذَلكَ اليومِ أكثَرَ مِنَ العادةِ، ولَم تستطِعْ أَفرِشَتُنا أَنْ تطرُدَ قَرَسَ البَرْدِ عَن عِظامِنا على رُغمِ أَغطِيَتِها الكثيفةِ. ولمّا استَيقَظْنا في اليومِ التّالي لَم نُصدِّقْ أَعْيُنَنا. فَقدْ هَتفَتْ أمّي بنا صائحةً:

ـ تعالَوْا انظُروا الثّلجَ!



ومدَدْنا أنظارَنا مِن خلْفِ البُخارِ اللّاصِقِ بزُجاجِ النّوافذِ، ثمّ مسَحْنا الغَشاوةَ بأَيْدينا الصّغيرةِ، فتَكشّفَتْ لنا المدينةُ وكأنَّ بساطاً أبيضَ كبيراً قدْ بُسطَ فوقَ بيوتِها جميعاً. وتَسرَّبَ البياضُ إلى سطحِ الكنيسةِ الّذي كانَ يَنبُتُ فيهِ عُشْبٌ أَسودُ، فانْجلى عَن بياضٍ غريبٍ. ولَفَتَنا جدّاً البياضُ فوقَ القُبّةِ، والبياضُ فوقَ بُرجِ الجرَسِ، والبياضُ في الشّارعِ حيثُ بدأَتِ الحَرَكةُ بشيءٍ مِنَ البُطءِ.

كانَ منظرُ الثّلجِ يُلهينا عَن أيِّ شيءٍ آخَرَ، وقدْ **هفَّتْ نفوسُنا إلى** هَذا المَشهدِ الفريدِ في حياتِنا. وارتدَيْنا مِن كلِّ ثوبٍ اثنَيْنِ: الجواربِ، وقُمصانِ الصّوفِ، والقُمصانِ الدّاخليّةِ، وارتدَيْنا سَراويلاتِنا الطّويلةَ فوقَ سَراويلاتِ النّومِ. وذهَبْنا إلى المدارسِ صبيحَةَ ذَلكَ اليومِ محمَّلينَ بالثّيابِ الثّقيلةِ.

لَمْ تَهدأْ **سَورةُ** الدّهشةِ بالمنظرِ الجديدِ إلّا في المساءِ،

هَفّتِ النّفوسُ إلى شَيءٍ: مالَتْ إلَيْه.
السَّوْرةُ: الحِدّةُ والشّدّةُ.

عِندَما تحلَّقْنا حولَ النّارِ نَتأفَّفُ مِنَ البردِ، ونَتلاحظُ بَينَ الحينِ والحينِ تحتَ رَقابةِ والدِنا الجالسِ على كُرسيِّهِ، وهو يَعرِضُ أحداثَ اليومِ في جريدتِهِ المسائيّةِ المفضَّلةِ. وإذْ به يَتوقَّفُ فجأةً عنِ القراءةِ ليَصيحَ:

ـ اسمعوا هَذا الحدثَ الفظيعَ! لقدْ عثَرَ رجالُ الأمنِ على امرأةٍ في العَقدِ السّادسِ مِن العمرِ، كانَتْ مُلقاةً في الثّلجِ بضاحيةِ المدينةِ. وقدْ كانَتْ تَرتدي ثوباً طويلاً مُزَرْكَشاً، وهي تقبِضُ في يدَيْها عَلى مجموعةٍ صَدِئَةٍ مِن سِداداتِ زجاجاتِ «الكازوزةِ». فتمَّ نقلُها بسرعةٍ إلى المُستشفى وهِي تُعالِجُ أنفاسَها الأخيرةَ. تَبيَّنَ أنَّ المرأةَ كانَتْ مُصابةً بمرضٍ عقليٍّ، وفرَّتْ مِن أحدِ مُستشفياتِ الأمراضِ العصَبيّةِ.

واعترَتْني مَوجةٌ مُحرِقَةٌ مِنَ القلقِ والتّساؤلِ، فقُلْتُ لوالدي:

ـ هلْ يَعني هَذا أنَّ المَرأةَ ماتتْ؟

فطيَّبَ خاطري ضاحكاً:

ـ يُستدَلُّ مِن هَذا الكلامِ أنّها لَم تكُنْ قدْ ماتَتْ بعدُ،

لدى كتابتِهِ.

ـ وهَلْ يَعني أنَّها ماتَتْ بعدَ هَذا؟

ـ لسْتُ أدري.

ـ وهلْ تُنبِئُنا جرائدُ الغدِ عَن مصيرِ هَذه المَرأةِ المِسكينةِ؟

وصرَفَني والدي عَن هَذا **الإلحافِ** في السّؤالِ. وقادَني إلى غرفةِ النّومِ بيدِهِ وهو يقولُ لي بحزْمٍ:

ـ ارتَدِ ثيابَ النّومِ وانْدَسّ في سريرِكَ، ودَعْ عَنكَ هَذه الأسئلةَ الّتي لا فائدةَ مِنْها.

وأطعْتُ أوامرَ والدي واندَسَسْتُ في الفراشِ. ولَم أَنَمْ طيلةَ ذَلكَ اللّيلِ الطّويلِ.

بَقيتُ ـ أنا ورُفَقائي ـ **نَتحاشى**، بعدَ تلكَ الحادثةِ، عَن أَنْ نَذهبَ إلى النّهرِ. ظَلَّتْ تُلاحِقُنا صورةُ تلكَ المَرأةِ المسكينَةِ الّتي لَمْ نَرأَفْ بها. وظَلِلْنا مُعتقِدينَ فترةً طويلةً أَنَّنا جَنَيْنا علَيْها. ولمْ نكُنْ نَذكُرُ الأمرَ

الإلحافُ: الإلحاحُ والإصرارُ.

تحاشى عَنِ الشّيءِ: ترفَّعَ عَنْهُ وابتَعَدَ.

بينَنا إلّا مُتهامسينَ، تهرُّباً مِن صوتِ الضّميرِ الّذي لَم نعرِفْ **تقريعاً** وتعنيفاً أَقوى مِن تقريعِهِ وتعنيفِهِ في ذَلكَ الحينِ...

وظَلِلْنا هَكذا... إلى أَنْ كانَتْ «زُمْرتُنا» قدْ أجمعَتْ أمرَها، ومضَيْنا نجتازُ الشّارعَ. وإذا بِنا نَرى المَرأةَ نفسَها بَينَ السّابلةِ. فهتفَ مَروانُ:

ـ انظروا! إنَّها هُنا.

وأسرَعْنا إلَيْها جميعاً، وألقَيْنا عليْها التَّحيّةَ. فلَم تَرُدَّ. وسألْناها إلى أينَ هي متَّجهةٌ. **فلَم تُحِرْ جواباً.** وأَمسَكْناها بيَدِها نهزُّها، فلَمْ تَتغيَّرْ نَظَراتُها، ولَكنْ بَرَقَ فيها شيءٌ. فأَخذَ كلٌّ مِنّا ما كانَ يَحملُه في جيبِهِ مِنْ نقودٍ، ودَسَسْنا ما جَمعْناهُ في يدِ المرأةِ، فلَمْ تَشكُرْنا ولَم تقُلْ شيئاً، بلْ نَظرَتْ إلَيْنا نِظرةً فيها اختصارٌ لِمعاني الامتنانِ، وتَخلَّتْ عَن جُمودِها. وسارَتْ في الشّارعِ حتّى غابَتْ بينَ السّابلةِ.

التّقريعُ: التّأنيبُ والتّعنيفُ.
لَمْ تُحِرْ جواباً: لَمْ تَرُدَّهُ.

وما زِلْنا بعدَ ذلكَ، نَلقاها في الشّارعِ بَينَ الحينِ والحينِ. ولَكنَّنا لَم نَسمعْ لها صوتاً، ولا لَمَحْنا في نَظَراتِها مِن ذَلكَ البريقِ إلّا أَطيافاً...

قصة

الخُطُواتُ

الأَقدامُ تَطرُقُ بِكَثرةٍ خلْفَ بابِ الدُّكّانِ... لَم يبقَ باستطاعتِهِ أنْ يَتبيّنَ عددَها: أربعةٌ... ستّةٌ... عشَرَةُ رجالٍ... أكثرُ... وأكثرُ. القريةُ كلُّها تَزحَفُ. أَولادٌ صغارٌ، وأُمّهاتٌ، ورجالٌ، وشُيوخٌ. الزَّحفُ الفَرِحُ يَتدفَّقُ كالدّماءِ في عروقِ جسمٍ مُهتاجٍ. غداً تَتحقّقُ الأُعجوبةُ المنتظَرةُ مُنذُ سنواتٍ، ويَرتوي حَلْقُ الأرضِ، وتُزهِرُ مواعيدُ سَنواتِ القَحْطِ الماضيةِ.

فكَّرَ المعلّمُ سليمانُ في الآخَرينَ الّذينَ يَفرحونَ وحدَهُمُ اليومَ. والآخرونَ كانوا جُزءاً مِنْهُ، وهو عِندَهُم مَحَطُّ الأنظارِ. أَخْيِلَةُ العابرينَ تَتحرَّكُ على جدارِ الدُّكّانِ، ثمّ تَمضي مِن غَيرِ كلامٍ، كأنَّهُم لَمْ يَتوقّفوا

عِندَ بابِ دُكّانِهِ باحترامٍ طيلةَ ثلاثينَ عاماً، ليُلقوا تحيّةَ الصّباحِ. والنّساءُ يَعْبُرْنَ مُسرِعاتٍ، غيرَ مُكترِثاتٍ، كأنَّ الخاطِباتِ لَم يَعرِضْنَ علَيْهِ خِدْماتِهِنَّ في زمنِ العزِّ الغابرِ...

اللّهُ! اللّهُ! المالُ، والنّساءُ، وشَرفُ الصّنعةِ: مُثلَّثُ الحياةِ الدُّنيا، أَتْلَفَ العُمرَ في **طِرادِها**، وها هيَ اليومَ **بُلْغَةُ العَيشِ** تَستكثِرُ نَفْسَها علَيْهِ.

ولَمْ **تَنِدَّ** عَنْهُ التفاتةٌ نحوَ الشّارِعِ. الأقدامُ الكثيرةُ تَطرُقُ وتَطرُقُ، لا تَتوقَّفُ. وأهازيجُ مكبوتةٌ وبعيدةٌ تَتاهى إلى مَسْمعِهِ. وقدْ شاركَ القريةَ في الزّمنِ الغابرِ، في أيّامِ البُؤسِ والهناءِ، وكانَ ربيبَ الأفراحِ وشريكَ **المُلِمّاتِ**. غيرَ أنَّ أهازيجَ الفرحِ تُوَقِّعُ اليومَ وثيقةَ الانفصالِ بينَهُ وبينَ الآخَرينَ.

والخَدَرُ يُتابعُ زحفَهُ على ساقِهِ المُتحمّدةِ، فتَلتصِقُ

طِرادها: مُطارَدتِها ومُلاحقتِها.
بُلغةُ العَيشِ: ما يَكفي مِنَ العَيشِ ولا يفضُلُ.
تنِدُّ: تُفلِتُ وتَشْرُدُ.
المُلِمّاتُ: المصائبُ.

أكثرَ فأكثرَ بالكُرسيِّ المخلَّعِ خلْفَ طاولةِ الصَّنعةِ. مدينتُه الصّغيرةُ تَتثاءبُ وتَزْفِرُ بأنفاسِها الأخيرةِ. وجُدرانُ «الشّحْتارِ» الأسودِ، الحُبلى بالبراميلِ المعتَّقةِ ورَبَطاتِ الحنفيّاتِ، تَلُفُّه مِن الجِهاتِ الثّلاثِ بتَوسُّلٍ ورجاءٍ، فيُغمِضُ عَينَيْهِ... ويَتذكَّرُ: ثلاثونَ... واحدٌ وثلاثونَ... بَلْ ثلاثونَ عاماً!!.. ماذا جنَيْتُ مِن هَذا العُمرِ الأَسودِ كلِّه!؟

باتَ لا يُجديهِ حتّى أَنْ يَعُدَّ... عُمرُه كلُّه أرقامٌ مفترَضةٌ وَقفَ على عَتَبتِها المُمكنةِ، ثمّ أَوقعَتْهُ في **الخَواءِ** والفَراغِ. وسُنوهُ وأيّامُه ممزَّقةٌ على العَتَبةِ المحفَّرةِ، أومصلوبةٌ على خَشَباتِ البابِ **النَّخِرةِ**.

ـ رأيْتُ اليومَ حُلماً مُزعجاً.

وردَّ أبوهُ بقَسْوةٍ:

ـ دَعْكَ مِنَ الأحلامِ المُزعجةِ، وقُمْ!

ـ سأَذهَبُ إلى عرّافةِ القريةِ لتَقرأَ ليَ البَخْتَ.

الخَواءُ: الفَراغُ.
النَّخِرةُ: الباليةُ المفتّتةُ.

ـ لا شكَّ أنَّ الخرَفَ بدأَ يدِبُّ فيكَ... اللهُ يَـمْحَقُ الأولادَ!

ـ أبي! دَعْني أَستشِرِ العرّافةَ في هَذا الحُلمِ الغريبِ.

ـ وماذا رأيْتَ في منامِكَ يا تَيسُ؟ ما كنْتُ أظنُّ أنَّ هَذا الرّأسَ يَصلُحُ لِلأحلامِ. الحقيقةُ أنَّهُ يَأتي على بالي أنْ أَضحكَ عندَما أَفرِضُ أنَّكَ تَحلُمُ.

ـ أبي! رأيْتُ المياهَ تطلَعُ مِن الأرضِ بغزارةٍ. ورأيْتُ بابورَ الكازِ يَطفو على المياهِ الكثيرةِ النّابعةِ مِن ترابِ الأرضِ، ثمَّ تَنطفئُ لَهْبَتُه، ثمَّ تَعومُ البراميلُ كلُّها، وتَعلو المياهُ أكثرَ فأكثرَ حتّى تبلُغَ الرَّقبةَ... وأَختنِقُ، ثمَّ... لا أَذكرُ شيئاً.

ـ ألصَّنعةُ ذهبٌ أبيضُ! قُمْ!.. انهَضْ! واخلَعْ عنْكَ رداءَ الأَوهامِ.

راحَ يُفكِّرُ: «أبي! أبي! أينَ عظامُكَ المُهترئةُ الآنَ؟ أنتَ صيَّرْتَني سَنكريّاً بائساً، وأَطمَعْتَني بالثَّراءِ

يَمحَقُ الأولادَ: يُبطِلُهم ويُنقِصُهم (دعاءٌ عليهم بعدمِ مُباركةِ اللهِ إيّاهُم)

والرَّفاهِ مِن صُنعِ براميلِ المياهِ، وقُلْتَ: هَذه صِناعةٌ لا **تَكسُدُ** لأَنَّ النّاسَ كلَّهُم سيَحتاجونَ إلى براميلِ الماءِ للاِغْتسالِ».

ووجْهُ أبيه لمْ **تَطمُسْهُ** السَّنواتُ. إنَّهُ يُشرقُ خِلالَ غُبارِ الزّمنِ السّالِفِ، بقَسَماتِهِ القاسيةِ، وأنفِهِ الكبيرِ الّذي نَما تحتَهُ شاربٌ كالغابةِ. وكأنَّ الوالدَ يَشُدُّ يدَ ابنِهِ بِعُنفٍ: الصَّنعةُ ذهبٌ أبيضُ وسِرٌّ مخبَّأٌ... النّارُ، والقَصديرُ، والتَّنكُ الأبيضُ، والتّوتياءُ، وخَنَفيّاتُ البراميلِ الذّهبيّةُ. والعُمرُ يَعدو بسَنواتِهِ كجيادٍ مُسرعةٍ في حُلمٍ عميقٍ، تَركضُ وتَركضُ ولا تَبرَحُ مكانَها. «أبي! أنْتَ صيَّرْتَني بائساً! ولَكنْ مَن يرُدُّ الجوابَ؟ كأنَّكَ لمْ تُدرِكْ أنَّ فلسفةَ زمانِكَ لَم يَبقَ لها في عجائبِ هَذا الزّمانِ حسابٌ. وقدْ كنْتَ تَدَّعي أنَّكَ لا تُخطئُ!»

البابورُ في الزّاويةِ يَنْحَبُ بصَوتِهِ وقدْ **شَحُبَتْ** لَهْبتُه

كَسَدَ الشَّيْءُ: لَمْ يَنفُقْ لِقِلَّةِ الرّاغبينَ فيه، وهنا المقصودُ أنَّ هَذه الصِّناعةَ لا تزولُ، وتَبقى ناشطةً.

طَمَسَ الشَّيءَ: مَحاه وأزالَ أَثَرَهُ.

شَحُبَتْ: ضَعُفَتْ وتَغيّرَ لونُها.

ومضَتْ تَعْتَلُّ. ومِكواةُ لِحامِ القَصديرِ مُلقاةٌ جانباً، خاملةٌ بِـمَذلَّةٍ. وآخِرُ بَرميلٍ لَمْ يُتِمَّ صُنعَهُ بعدُ. ولماذا يُتِمُّه؟ ولِمَن؟ والنّاسُ يَبتهجونَ بقُدومِ الماءِ وامتدادِ القساطِلِ إلى البيوتِ!

وأَطلَّ صبيٌّ منفوشُ الشَّعرِ وهائجٌ كالبَرغوثِ:

- عَمّي سليمانَ! لماذا لا تُغلِقُ دُكّانَكَ وتَسيرُ معَنا؟... هَلْ عرفْتَ أنَّ الماءَ سيتدفَّقُ غدًا؟

ويُزَغرِدُ الصّبيُّ: «ديروا الـمَيْ... ديروا الـمَيْ!». ثمَّ يَنتقِلُ اللّحنُ كالعَدْوى إلى الفِتْيةِ، فتَدورُ أفواهُهُمُ الصّغيرةُ بكَلِماتِ الأُغنيةِ، ثمَّ يَندفعونَ في مَسيرةٍ بشكلِ تَظاهُرَةٍ: «ديروا المَيْ... ديروا المَيْ!» ويَنضمُّ إلى المُتظاهرينَ أُناسٌ عديدونَ، فتَتضخَّمُ الكُتلةُ البشريّةُ الفَرِحةُ.

الماءُ! الماءُ! غداً يتدفَّقُ الماءُ في القريةِ، وتَطرَحُ النِّسْوةُ الدِّلاءَ بعيداً، وتُسَدُّ فوهاتُ الآبارِ، لتَمتدَّ القَساطلُ في البيوتِ، يَجري فيها العَذْبُ **الرَّقراقُ**.

تَعْتَلُّ: تمرَضُ، وهُنا بمَعنى تَشِحُّ ويَضعُفُ نورُها.
الرَّقراقُ: المتلألئُ الصّافي.

الخُطُواتُ تَـزدادُ بكَثرةٍ... وتَتدفَّقُ... وتَطغى بإيقاعِها على أفكارِهِ الـمُتشرّدَةِ.

وعبَرَ وفدُ المُختارِ في **حَفْلٍ مَهيبٍ**، قـرْبَ بابِ الدُّكّانِ، ولَكنَّ أحداً مِن **الرَّهْطِ** الجليلِ لَم يَلتفِتْ إلى العمِّ سليمانَ القابعِ خلْفَ صحائِفِ التَّنَكِ. «ثلاثونَ عاماً أمضَيْتَها في المِهنةِ، لَم تُغنِكَ عَن شيءٍ. وأنْتَ اليومَ المعذَّبُ الوحيدُ. لَم تَجمَعْ قِرشاً على قِرشٍ إلّا ذهَبَتْ به **صُروفُ** الأيّامِ. وجِهادُكَ كلُّه لَم يَستطِعْ أنْ **يُقيتَ** إلّا فماً واحداً هو فمُكَ. أينَ الذّهبُ الأبيضُ، أينَ؟ انهَضْ عَن كُرسيِّكَ المخلَّعِ وانطلِقْ معَ الآخَرينَ. وغداً تَتدفَّقُ المياهُ، وَيظلُّ دُكّانُكَ أشبَهَ بالمُتحَفِ الّذي يُذكِّرُ الأَهْلينَ بسَنواتٍ ماضيةٍ. ويُشيرونَ إلَيْكَ قائلينَ: هُنا كُنّا نَصنعُ براميلَ الاِغتسالِ قبلَ مَدِّ الماءِ. وتَظلُّ أنتَ

الحَفْلُ: الجَمْعُ، جماعةُ المُحتفين.
مَهيبٌ: جليلٌ.
الرَّهْطُ: قَوْمُ الرَّجُلِ وأهلُ قريتِهِ.
الصُّروفُ: المَصائبُ وتقلُّباتُ الزّمنِ.
يُقيتُ: يُطْعِمُ.



تمثالَ المُتحفِ الوحيدَ. قُمْ، تحرَّكْ!... سواءٌ مُتَّ غداً أو بعدَ غدٍ من كَسادِ الصّنعةِ، فأنْتَ اليومَ حيٌّ. وغداً لَن يُلقيَ إلَيْكَ أحدٌ بالاً. الغولُ الّذي خِفْتَهُ سَنواتٍ طويلةً، وعلَّلتَهُ بعرَقِ الجبينِ وشَقِّ النَّفْسِ، لَن يَتطلّعَ إلَيْك وهو يُمزِّقُ جسدَكَ بأنيابِهِ البرّاقة».

وأَحسّ بشَوقٍ مُفاجئٍ إلى أُمِّ فَتْحي، العرّافةِ الوحيدةِ في تلكَ الأَرجاءِ. وتذكَّرَ الحُلمَ الّذي يَخبِطُ العِظامَ. ولَكِنْ، هَلْ تُفسّرُ الأحلامُ بعدَ ثلاثينَ عاماً؟

قَدَماهُ تَنْقُلانِهِ ببُطْءٍ ثقيلٍ وسَطَ الشّارعِ الأعمى، كأَنَّهُ آلةٌ مُخلخَلةُ المَحاورِ تَمشي بينَ الزِّحامِ: «أَينَ أُمُّ فَتْحي يا ولدُ؟... أُمُّ فَتْحي ماتَتْ قبلَ أَبيكَ... وهِيَ أَيضاً لَم تُغْنِها صِناعتُها عَنِ الموتِ. أَتُراها عَرفَتْ أَجَلَها أَينَ يَنتهي؟ فكيفَ تحمَّلَتْ بعدَ ذلكَ الحياةَ المعدودةَ السّنواتِ؟».

ومَضى يَضحكُ مِن نفسِهِ... كيفَ يَقصِدُ بيتَ أُمِّ فَتْحي وهِيَ في عِدادِ الأمواتِ؟ ولَكِنَّهُ يَشعرُ بحاجةٍ إلى مَن يَحُلُّ له رموزَ الحُلمِ. وغداً يَجري الماءُ في القريةِ...

عرّجَ على صديقِهِ القَديمِ أَبي الهِمّاتِ، سيّدِ شُبّانِ القريةِ في الزّمنِ الذّهبيِّ السّالِفِ. فتَلقّاهُ **بالبِشْرِ**، ولَم يكُنْ يَنتظِرُ زيارتَهُ.

ـ أراكَ اليومَ مُكدَّرَ الخاطِرِ يا معلِّمُ سُليمانُ.

ـ القَرَفُ!.. القَرَفُ يا أَبا الهِمّاتِ.

ـ يَقْطَعْ دينَ القَرَفِ... وماذا بقيَ لنا بعدَ الشّبابِ؟

ـ ولَكنّكَ أنْتَ تزوَّجْتَ وفرِحْتَ بالعِرسانِ.

ـ كلُّها لُعبةٌ يا معلِّمُ سُليمانُ. الكَونُ يَعمَرُ ونحنُ **تالفونَ**.

ـ يَقولونَ إنَّ الماءَ سيَتدفّقُ غداً، ويَجري في قَساطِلِ البيوتِ.

ـ زمنُ عجائبَ!...

ـ وقدْ مَضى الجميعُ لِلاِحتفالِ في ساحةِ القريةِ.

ـ اترُكْهُم يَنْبِسطونَ.

قفلَ بعدَ زيارتِهِ القصيرةِ راجعاً، ولَم يَبُحْ بالحُلمِ

البِشْرُ: بَشاشةُ الوجهِ.
تالفونَ: هالِكونَ.

القديمِ لصديقِ أيّامِ الشّبابِ. وزمّ شفتَيْهِ مِنَ الخجلِ والضّيقِ، إلّا أنّ النّسماتِ العبيةَ بدأَتْ تبرّدُ صدرَهُ، وحديثَ الوُدِّ خفّفَ مِن همومِهِ. غيرَ أنَّ الخوفَ لا يَزالُ يُرجِفُ عِظامَهُ، والخَدَرَ يزدادُ تَعلغُلاً في ساقِهِ.

وعَبْرَ **القادوميّةَ** الضّيّقةَ لا يُؤنسُه شيءٌ إلّا وَساوسُ نفسِهِ، وهَواجسُها. والغروبُ مُشرِفٌ على القريةِ، ونُباحُ الكلابِ يَتردّدُ بَينَ البيوتِ. ومرَّ بغابةِ الزّيتونِ الصّغيرةِ فعاوَدَتْهُ **أَضغاثُ أحلامٍ**: ماذا لو بقيَتْ هَذه الأرضُ لأبيهِ، ولَم يُنفِقْها على تَفتيلِ شارِبَيْهِ وعلى شِراءِ العزِّ الباطلِ؟ ماذا لو ترَكَ له ما **يُقيلُ العَثَراتِ**؟ «الصَّنعةُ ذهبٌ أبيضُ وسِرٌّ مخبّأٌ»... آمنّا وصدّقْنا يا أبا سُليمانَ، ولَكنّ الزّمانَ غيّرَ... استظلَّ شجرةً عتيقةً واستراحَ. الخَدَرُ لا يزالُ في ازديادٍ. ثمّ مضى يُسرّحُ نظرَهُ في غابةِ الزّيتونِ الصّغيرةِ، فحَزَّ كالسّكّينِ في قلبِهِ، أنْ

القادوميّةُ: لفظةٌ عاميّةٌ تعني الطّريقَ المختصرةَ القريبةَ.

أضغاثُ أحلامٍ: أحلامٌ مختلطةٌ مُبهمةٌ لا يَصِحُّ تفسيرُها لغموضِها

يُقيلُ العثراتِ: يُنهِضُ من السّقطاتِ.

يَرى غصونَها تاعسةً ذابلةً كأنَّها **تَسترحِمُ**. وتَذكَّر نبأً سمعَهُ مؤخَّراً فأقلَقَهُ: صاحبُ الغابةِ سيقطعُ شَجَراتِ الزّيتونِ وَيقتلِعُها ليَزرعَ غِراسَ ليمونٍ تَصِحُّ معَ المياهِ الجديدةِ. **فكَمِدَ** قلبُهُ، وعزَّتْ علَيْهِ الدُّنيا، وأَحسَّ أَنَّ جُذورَ حياتِهِ متَّصلةٌ بجذورِ هَذه الشَّجَراتِ...

ولَم يُطِقِ المُكوثَ طويلاً، فلعَنَ الماءَ ونهضَ يُكْمِلُ طريقَهُ لا يَدري إلى أينَ!

عِندَما وصلَ السّاحةَ أَحسَّ بحيويّةٍ غريبةٍ انتشرَتْ فجأةً في جسدِهِ. والقريةُ كلُّها في **حُداءٍ** متواصلٍ وضجيجٍ **وصَخَبٍ**. الفرحُ يَمتصُّه ويُحيلُه إلى حَطَبةٍ جافّةِ الألْيافِ متَهِبةٍ. مَهِّدْ صَهوةَ جوادِكَ أيُّها الفَقرُ، فاليومُ يومُ الابتهاجِ! وسرَتْ إِلَيْه العَدوى، ولَمْ يَدْرِ إِلّا وهو بَينَ المُتظاهرينَ يأخذُ بحُدائهِم بحماسةٍ نادرةٍ.

الخُطُواتُ تَتكاثَرُ أيضاً وأيضاً... تَزحَفُ على

تَسترحِمُ: تطلُبُ الرَّحمةَ

كَمِدَ: انْقبضَ حُزْناً وغمّاً.

الحُداءُ: نوعٌ مِن الغناءِ التُّراثيِّ.

الصَّخَبُ: اختلاطُ الأصواتِ.



أعصابِه، تَسري فيها كَملايينَ مِنَ النّملِ. وانعقدَتْ حَلْقَةُ الدَّبكةِ وارْتَجّتِ الأرضُ، وصعِدَ الغُبارُ... والدّمُ يَتدفّقُ في شِريانِ رَقَبتِهِ مِنَ الفرحِ والنّشوةِ والإجهادِ في الرّقصِ... ثمّ وقفَ المُختارُ فوقَ كومةٍ مِنَ الحجارةِ، وصاحَ بالأَهلينَ:

- يا جماعةَ الخيرِ.

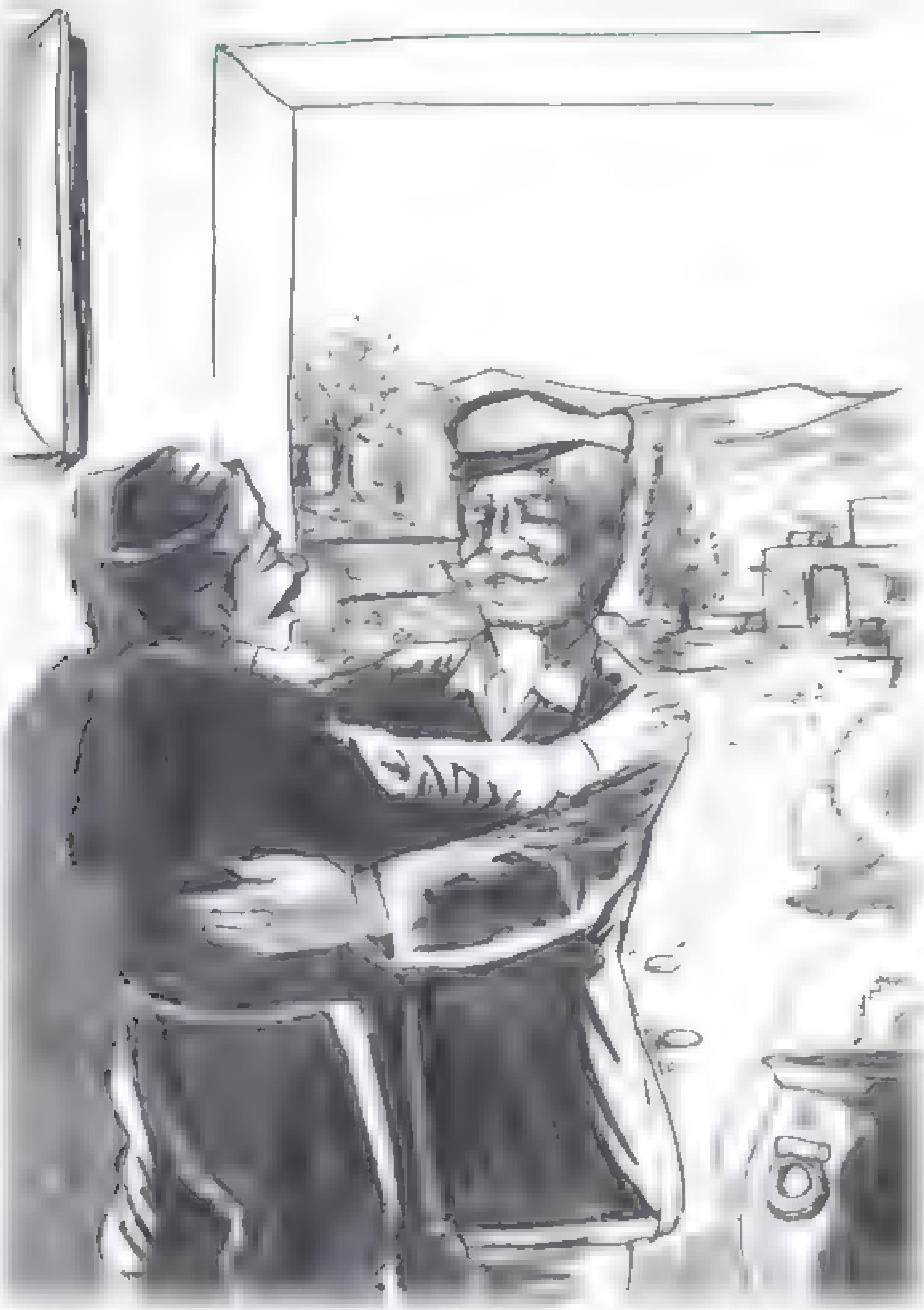
وتَوقّفَتِ الدّبكةُ، وأَنْصتَ الجميعُ. فأَلقى المُختارُ خِطاباً قوبلَ بالتّصفيقِ.

ثمّ استأنفَتِ الخُطُواتُ إيقاعَها. واشتدَّ الزِّحامُ، وطَغى السَّيلُ البَشريُّ على الهَواجسِ والتّساؤلاتِ.

تَوالَتِ الطَّرَقاتُ على بابِ أَبي الهِمّاتِ عنيفةً. فركضَ الصَّبيُّ يَفتحُ البابَ، وعاد إلى أَبيهِ مُسرعاً يقولُ:

- مأمورُ شِرْكةِ المياهِ على البابِ يَسألُ عنْكَ.

وهرولَ أَبو الهِمّاتِ لِلقاءِ المأمورِ، فرَفعَ العمُّ سُليمانُ قُبّعَتَهُ وقدَّمَها أمامَهُ، وكأنّهُ يَفتحُ بِها الطّريقَ إلى بيتِ صديقِهِ القديمِ، وقالَ متهلّلاً:



ـ هَذا أنا يا أَبا الهِمّاتِ. عَيّنوني بالوظيفةِ وتَرَكْتُ الدُّكّانَ. كيفَ الماءُ عندَكُم؟ أنا بالخدمةِ. أَرأَيْتَ الأيّامَ كيفَ تَتغيّرُ؟

وتشابَكَ الرّجُلانِ في عِناقٍ طويلٍ... كجبلَيْنِ مِنَ الودادِ.

قصة

القـاتـِلُ

ـ تُريدُ أنْ تَعرِفَ كيفَ قَتلْتُ يوسفَ الفَحْلَ؟

وقهقَهَ بعصبيّةٍ، حتّى امتلأَتِ القاعةُ بالصّدى. ولَم يَلتَفِتِ اللّاعبونَ الشّاخصةُ أبصارُهُم، ولا ولدُ القَهوةِ الّذي اندسَّ بَينَ الزّبائنِ يَحمِلُ صينيّةَ الشّرابِ بَينَ الضّجيجِ.

ـ حَسَنٌ. سأقُصُّ علَيْكَ الخبرَ. ولَكِنِ استمِعْ إليَّ؛ يَقولونَ لكَ إنّي فَقدْتُ شعوري مِنَ اليأسِ! لا تُصدِّقْهُم، فأنا أُمارِسُ أفراحي وأَحزاني كلَّها على هَذه الرّقاعِ الخُضرِ.

واجتهَدَ حتّى يَزْدرِدَ ريقَهُ، وحِرابُ الشَّرَرِ تَتنافرُ

الحِرابُ مفردُها الحَربةُ وهي آلةٌ حَربيّةٌ مِنْ حديدٍ مُسنّنةٌ وقصيرةٌ.

مِن دائرتَيْ عَينَيْهِ الدّاميتينِ، وتَجاعيدُ وجهِهِ **تُجالِدُ** زَحْفَ السِّنينَ.

ـ استمعْ إليَّ. أَشكرُكَ يا سيّدي لأَنَّكَ تَستمعُ إليَّ. لعلَّكَ زائرٌ جديدٌ. افعَلْ ما يَبدو لكَ، فأنا لا أَقولُ شيئاً!

ومرَّ رجلٌ بَدينٌ يَلعنُ الحظَّ، فحادَ مُحدِّثي عَن طريقِهِ، ثمَّ دَنا يَهمِسُ في أُذني:

ـ النّاسُ هُنا لَم يَبقَوْا يَستمعونَ إليَّ. حتّى صاحبُ هَذا المكانِ لَم يَبقَ يُطيقُ حَديثي. لَعَلَّ قِصّتي مُمِلّةٌ. وأمّا أنْتَ فمُستمعٌ مُلائمٌ، لأَنَّكَ زَبونٌ جديدٌ.

وتَوقّفَ يَرمُقُ بطَرْفِ عَينِهِ دولابَ «الرّوليتِ». وصَمَتَ بُرهةً قبلَ أنْ يُكملَ:

ـ ماذا كنْتُ أقولُ؟!.. نعمْ... نعمْ... قلْتُ لكَ إنّي أُمارِسُ هُنا أفراحي وأَحزاني على هَذه الرِّقاعِ الخُضْرِ. مُنذُ سنةٍ أو أكثرَ. لسْتُ أذكرُ (الأيّامُ هُنا تَسيرُ بِبُطْءٍ

تُجالِدُ: تَضرِبُ بالسَّيفِ، وهنا تعني تقاوِمُ.

وبَلاهةٍ، وليسَ إلّا الدّولابُ يُسرِعُ).

في الخارجِ كانَتِ الرّيحُ تَصفِرُ بِصوتٍ أَبَحّ، وتَسعُلُ كأَنّها أُصيبَتْ بزُكامِ كانونَ الثّاني. ولَكِنَّ العَراءَ الحزينَ لا تَصلُ أنفاسُه الصّقيعيَّةُ إِلى الشُّموعِ المُحتَميةِ بالجُدرانِ، ولا إلى الزّينةِ الزّاهيةِ المعلّقةِ بألوانِها بَينَ السّقفِ والزّوايا.

ـ انظرْ! انظرْ! «كلَّ عامٍ وأنتُمْ بخَيرٍ!» يا لَهُمْ مِن سَفّاكينَ!

وقاومَ جَفناهُ البطيئانِ أَثقالَ التّعبِ والسّهرِ والسّنينَ. وبَريقُ الحِقدِ خَلفَهُما هو الحقيقةُ الوحيدةُ الباقيةُ مِن هَذا الهَيكلِ المُتَداعي.

وحَكَّ ما بَينَ شَعَراتِ رأسِهِ القليلةِ البيضاءِ متذكِّراً:

ـ انظرْ أَينَ صِرْنا! نَكونُ في حديثٍ ونَصيرُ في حديثٍ. قُلْتُ لكَ إنّي أُمارسُ هُنا أَحزاني وأَفراحي. أَلَيسَ هَكذا؟ بَلى... بَلى... أَتعرِفُ ماذا أَفعلُ يومَ تَسوَدُّ في وَجهي الدُّنيا؟ أَحزِمُ أَمري، وأَتوجَّهُ إلى هُنا، أُمارسُ هِوايتي بشراسةٍ وعُنفٍ. أَغضَبُ، أُشاكِسُ،

أُجَنُّ، وأخيراً أَخرُجُ بالنّتيجةِ المُزْمنةِ... أَخسَرُ كلَّ ما أَحمِلُ مِن نُقودي، وأَنْزوي في آخِرِ القاعةِ **أَتفرّجُ** بالنَّظَرِ إلى اللّاعبينَ. ولَكِنّي أُنفِّسُ عَن قَلبي، وأُحسُّ أَنّي فَعلْتُ شيئاً ما... فأَرتاحُ!

ثـمَّ قـالَ بَينَ ضِحكةٍ صفراءَ، وتَنفُّسٍ كقَفزِ الأرانبِ:

ـ أَتُصدِّقُ أَنَّهم كانوا يَدْعونَني «البَطلَ»؟! قُلْ لي: لـماذا؟ لأَنّي كنْتُ أُرهِبُ نصفَ المدينةِ. كنْتُ **عِمادَ** الحيِّ كلِّه مِن أوّلِ «الجُمَّيْزَةِ» إلى جسرِ النّهرِ. حبيب باشا ـ رَحَماتُ اللهِ عليْهِ ـ هَزَّ كَتِفي وقالَ: اذهبْ، أَنْتَ أَرْجَلُ مَن عَرفْتُ!... ثمَّ عيّنَني في خدمتِهِ، فصِرتُ أَحمي عربَتَهُ الفَخْمةَ بِخُيولِها **المُطَهّمة**. وأنا مُمْتطٍ وراءَهُ حصاني، وعَيناي تَطوفانِ على الشّارعِ، أَنظُرُ إِلى النّاسِ مِن فَوْقُ، مثْلَ النّسرِ **المُدِلّ**. عَشَرةُ أعوامٍ مِنَ

أتفرّج: أُزيلُ الهمَّ والحُزنَ عن نفسي.
العماد: مَن وما يُعْتَمدُ عليْه.
المطهّمة: السّمينةُ والتّامّةُ الجمال.
المُدِلّ: الّذي يأخذُ صَيدَهُ مِن فَوقُ.

العزِّ ما مَرَّ مِثلُها على رجُلٍ - سَقى اللهُ تلكَ الأيّامَ! - مَن كانَ يَجرؤُ على تَحَدّي البطَلِ؟! مَن كانَ يَحلُمُ بمجدِهِ؟ يَعقِفُ شارِبَيْهِ، وتَقدَحُ عَيناهُ بالغَضبِ المُتعالي عِندَما يُزمجِرُ حصانُه أو يَفحصُ الأرضَ بنِضْوَتِهِ النُّحاسيّةِ ذاتِ الرّنينِ. أقولُ لكَ - وصدِّقْني - إنَّ عيونَ الحِسانِ كانَتْ تُبَصبِصُ عليَّ مِن خلْفِ خَصاصِ النّوافِذِ، وعَبْرَ شِباكِ الشُّرُفاتِ، إذا تَناهى إلى أَسماعِهِنَّ في الخُدورِ وقعُ حوافِرِ فَرَسي على الطُّرُقاتِ المُبلَّطةِ... فهَلْ عَرفْتَ ما قيمةُ «البطَلِ»؟! كانَ ذلكَ قبلَ أنْ تولَدَ أنْتَ!! كَم لكَ مِن العُمرِ؟ ثلاثونَ، أو أَكثرُ قليلاً... أَلَيسَ هَكذا؟ ولَكِنَّ هَذا الحديثَ مِن أَربعينَ عاماً. أَربعينَ بالضَّبطِ، لأَنّني منذُ أيّامٍ احتفلْتُ بعيدِ ميلادي السَّبعينَ. وكنْتُ يومَذاكَ في مِثلِ عُمرِكَ. احتَفَلْتُ به هُنا - على عادَتي - فضحِكْتُ ومرَحْتُ ووزَّعْتُ على الأَولادِ ما فيه النَّصيبُ، وأَنفقْتُ أَكثرَ مِنَ العادةِ. أَفرغْتُ

سقى اللهُ: تعبيرٌ قديمٌ عَن الدّعاءِ بالخيرِ.

نِضوَةُ الفرس: حديدةٌ تُنعَلُ بها.

الخُدورُ: مفردُها الخِدْرُ وهو مَخبأُ المرأةِ أو غُرفتُها.

ما فيه النّصيبُ: مقدارٌ غيرُ محدَّدٍ.



جميعَ نقودي، وعُدْتُ إلى البيتِ. احتفَلْتُ بأفراحي هُنا ـ أتسمَعُ؟ ـ فجَوُّ البيتِ أصبحَ يُضايقُني، ويُمزّقُني، ويُشعِرُني بشَبَحِ الأيّامِ الماضيةِ.

ومرَّتْ سَحابةٌ مِنَ الرُّعبِ على جبينِهِ برقَتْ لها عَيناهُ واستدارَتا. وجفَّتِ الكَلماتُ على شفتَيْهِ، وتساقطَتْ كالثَّمراتِ اليابسةِ:

ـ شبَحُ الأيّامِ الماضيةِ لا يزالُ يُلاحقُني إلى هَذا الذُّلِّ!..

وبَكى كالطِّفلِ الخائفِ. وأمسكَني مِن يَدي وهزَّها بعُنفٍ.

ـ رأيْتُه ذَلكَ اليومَ ـ أقصِدُ الشَّبحَ ـ فكانَ عِملاقاً يَرتدي السَّوادَ مِن رأسِهِ حتّى قدمَيْهِ. وَجهُه **ملفَّعٌ**، وخُطواتُه بطيئةٌ، وجسمُه ثقيلٌ. ومَضى يُجَرِّرُ جسمَهُ الحزينَ صَوبي... فتَراجَعْتُ في الظُّلمةِ. وكانَتِ الغُرفةُ مغلَقةً. زجاجُ بابِ الشُّرفةِ انكسرَ فوقَ كَتِفي. احتَوَتْني

مُلفَّعٌ: ملفوفٌ ومُغطّىً بشالٍ.

عتمةُ اللّيلِ الواسعِ المُطِلّةُ على النّهرِ. بَقيتُ أتراجعُ. سَمعْتُ خريرَ ماءِ النّهرِ. صارَ ماءُ النّهرِ لاسعاً كألْسِنةِ اللّهيبِ. ظلَّ الشّبحُ يُلاحِقُني وهو صامتٌ، يَنوءُ بظلِّهِ الأسودِ عليّ، ويَدنو منّي ببُطءٍ. فلَمّا اقتربَ منّي كانَ ظهري إلى النّهرِ... ثمَّ قهقهَ في وَجهي قَهْقهةً عاليةً، فسقطْتُ رُوَيداً رُوَيداً في النّهرِ، وتَحوّلَ النّهرُ إلى بئرٍ مِن النّارِ، ثمّ تَحوّلَ إلى زَوْبعةٍ تَدورُ، ثمّ تحوّلَ إلى دولابٍ حديديٍّ عليْهِ أرقامٌ ملوّنةٌ حمرٌ وسودٌ، ثمّ حُمرٌ وسودٌ. وابتلّتْ ثِيابي. وغمرَني وَحْلُ النّهرِ. وأحرقَني اللّهبُ، ودارَ رأسي معَ الدّولابِ بأرقامِهِ الحُمرِ والسّودِ... وفتحْتُ عَينيّ، تلكَ اللّيلةَ، فأدرَكْتُ أنّي كنْتُ في الحُلمِ. كانَ العرقُ يَسيحُ مِن جسمي فَتبتلُّ بِهِ ثِيابي، ولَم أنَمْ طيلةَ ذلكَ اللّيلِ. الشّبحُ الأسودُ! الشّبحُ الأسودُ! أتَدري ما هو الشّبحُ الأسودُ يا بُنيَّ؟! إنّهُ شَبابي الّذي يُلاحِقُني إلى هَذا الذُّلِّ، وقدْ أَبى أنْ يموتَ أو

يَنوءُ: يَسقطُ.

الزّوْبعةُ: رِياحٌ هائجةٌ تدورُ على نفسِها وتتصاعَدُ نحوَ السّماءِ.

يَتوارى. بَلْ ظَلَّ يُلاحقُني بعدَ تلكَ اللّيلةِ، وفي كلِّ ليلةٍ، فلا أَستطيعُ له دفْعاً، ولا أَقوى على التّواري مِن طريقِهِ. أُريدُ أَنْ أَقتُلَهُ فأَتخلّصَ مِنْهُ. لَكنّي لا أَكادُ أَصلُ إِلَيْهِ حتّى أَرى أَصابعي متشبّثةً بعُنقِ الظّلام. إنّ أوهامي تَصبُبني على السّريرِ الّذي يَتمدّدُ فوقَهُ الأَرَقُ.

بدأَ الرّجلُ يَتنفّسُ بارتياحٍ، بعدَ أَنْ أَفرَغ مِن صدرِهِ الكَلماتِ. ثمّ قالَ بإِلحاحٍ:

ـ وعَدْتُكَ أَنْ أُخبرَكَ قصّةَ قَتلي ليوسفَ الفَحْلِ. اصبِرْ ولا تُعجِّلْ عليّ. سأُخبرُكَ كيفَ قتلْتُه. أتَعرِفُ شيئاً عَنِ الهامةِ؟ أجلْ، الهامةُ، ألا تعرِفُها؟ يُسمّونَها أيضاً الصّدى! حَسَنٌ، سأُخبِرُكَ عَنها. أنا أُثرثِرُ أكثَر مِنَ اللُّزومِ، أليسَ هَكذا؟ لا تلُمْني يا بُنيّ فأنا أيضاً رَجلٌ أكثرُ مِنَ اللّزومِ في أرقامِ النّاسِ. أنا الصِّفرُ الّذي يُزعِجُ اللّاعبينَ. الصِّفرُ! هَهْ!؟ الصِّفرُ!

وتأمّلَ طاولةَ اللّاعبينَ، وابتلعَ رِيقَهُ بصعوبةٍ قبلَ أنْ يُكمِلَ.

ـ كانَ جدّي يَروي لنا قِصصاً كثيرةً، ولَكنّي لَم

أَحفَظْ مِن حكاياتِهِ إِلّا قصّةَ الهامةِ. إِنّها طَيرٌ غريبٌ يعيشُ في رأسِ الإنسانِ ويَخرجُ مِنْهُ عِندَ الـموتِ. فإذا ماتَ الإنسانُ مَقتولاً خرجَتِ الهامةُ مِن رأسِهِ ووقَفَتْ على قبرِهِ وأخـذَتْ **تَصْأى وتَنْعَبُ** حتّى تُقلِقَ الحيَّ أو يأخذوا بثأرِهِ. أتَظنُّ أَنَّ هَذه خُرافةٌ؟ لا! صدِّقْني، إِنَّها حقيقةٌ. اسأَلْني أنا أَقُصَّ علَيْكَ أخبارَها. أنا قتلْتُ يوسفَ الفَحْلَ الفارسَ الّذي تقدَحُ نِضوةُ حصانِهِ شَرَراً فوقَ بَلاطِ «بيروتَ» القديمةِ. وهامتُه لا تَزالُ تُلاحقُني إلى الآنَ، تَصْأى وتَنْعَبُ وتَملأُ حياتي إزعاجاً، تَغرِسُ مَخالبَها في قلبي، وتـمزِّقُ بنَعيبِها صَدري وأَعصابي ورموشَ عَينيَّ. قَتلْتُ يوسفَ الفَحْلَ حتّى استحالَ رجلاً تَعِساً حقيراً. وإِلَيْكَ القصَّةَ بِلا مقدِّماتٍ.

قالَ الرَّجلُ:

ـ كانَ بيتُنا، في ذَلكَ الزّمانِ، في «الجُمَّيزةِ». ولَم تكُنْ مِثلَ اليومِ عامرةً بالسُّكّانِ، بلْ كانَتْ مَنطِقَةً خَرِبةً

تصْأى. تصيحُ.
تَنْعَبُ: تُصَوِّتُ كالغُرابِ.

وبعيدةً عَنِ المدينةِ. وكانَ الشُّبّانُ يَجتازونَ طُرقَ الصُّبَّيرِ الوَعِرةَ ليَصلوا إلى دارِنا كلَّ مساءٍ، يَسألونَ الخاطِرَ، **ويتسقَّطون الأخبارَ**، ويَعتزّون بنا نحنُ زينةَ الرِّجالِ.

أقولُ لكَ «نحنُ»، لأنَّنا كُنّا ثلاثةَ إخوةٍ على قَلبٍ واحدٍ ورأيٍ واحدٍ. الحاصلُ... أنا أُطيلُ علَيْكَ الكَلامَ. أليسَ هَكذا؟ ولَكِنْ لا تَتَضجَّرْ، استمِعْ إلى النّهايةِ، وسَوفَ تعلَمُ كلَّ شيءٍ. جاءَني يوماً رسولٌ مِن عِندِ الشَّيخِ سَعدي العَبّاسِ، وقالَ لي: «الشّيخُ يُسلِّمُ علَيْكَ ويَدعوكَ إلى فُنجانِ قهوةٍ». فقلْتُ: «خاطرُ الشّيخِ مسؤولٌ. بلِّغْهُ تَحيّاتي، وأنا قادمٌ إلَيْهِ». الحاصلُ... استقبلَني الرَّجلُ بالتَّرحابِ وعَمِلَ مِن قيمتي فضيَّفَني الشَّراباتِ والحُلوَ وكلَّ ما يَلزمُ. ثمَّ جلسَ يُحدِّثُني، فأشارَ **مِن طَرَفٍ خفيٍّ** إلى ما كانَ يَسمَعُ عَن رُجولتي وبَطشي، وأنَّهُ يَطمعُ في صَداقتي. فقلْتُ له متعذِّراً:

يتسقَّطون الأخبارَ: يأخذونها شيئاً فشيئاً.

مِن طَرَفٍ خفيٍّ: تعبيرٌ يَعني بطريقةٍ غيرِ مباشرةٍ.

«معاذَ اللهِ يا شيخُ سَعْدي. أنا لستُ على قَدْرِ المَقامِ».
فطيَّبَ خاطري وقالَ «مَقامُكَ عندنا فوقَ ما تَتصوَّرُ».
فلمّا نهضْتُ مودِّعاً، دسَّ في جيبي مُغلَّفاً وقالَ: «هَذا ظَرْفٌ أَرجو ألّا **تَفُضَّهُ** إِلّا وأنْتَ في بيتِكَ!»

«أَتَـدْري ماذا كانَ في الظَّرفِ؟ أَتَـدْري؟ وصلْتُ إِلى البيتِ ولَم أَكَدْ أُصدِّقُ! أحياناً تَأتي المفاجآتُ السّارّةُ سريعةً، ثمَّ تضعُ نهايةَ إِنسانٍ وتَقضي على البَقيّةِ الباقيةِ مِن حياتِهِ. رأَيْتُ في الظَّرفِ آنذاكَ ـ صدِّقْني، وحَياةِ هَذا المساءِ الفاضلِ ـ خمسَ مئةِ ريالٍ **مجيديٍّ** دُفعةً واحدةً! وكانَتْ لها قيمتُها في تلكَ الأيّامِ... الحاصلُ... في اليومِ التّالي ذهبْتُ أَتشكَّرُ الشّيخَ على معروفِهِ، فضحكَ وقالَ: «هَذه إِكراميّةٌ لكَ لا تَستحقُّ الذِّكرَ! والأيّامُ بَيْنَنا يا صاحبي... الأيّامُ بينَنا!»
وتَكرَّرَتْ زياراتي للشّيخِ، وأنا لا أَعلمُ سرَّ تَوَدُّدِهِ إِليَّ،

تَفُضُّه: تفتحُه.
المَجيديُّ: قطعةٌ من الفضّةِ كانَتْ قيمتُها عشرينَ قرشاً، نسبةً إلى عبدِ المجيدِ أحدِ سلاطينِ بني عُثمانَ.

حتّى باحَ لي يوماً أنَّهُ يُريدُ منّي مُقابلَ هَذا الإحسانِ أنْ أَحمِيَ لُعبةَ «الرّوليتِ» في نادي القِمارِ الّذي يُديرُه في الفُندقِ. وامْتَدحَني بـما لَم يَدَعْ لي مَجالاً للرّفضِ. واستَشرْتُ المسكينةَ أمَّ الأَولادِ فلَمْ تُمانِعْ. فمضَيْتُ أَخدُمُ الشّيخَ **والشّاكريّةُ** على جَنْبي، وعَيناي تَقدحانِ ناراً. فأَقِفُ بِبابِ الفُندقِ أَرصُدُ الدّاخلَ والخارِجَ، وأَرمُقُ السّابلةَ في الطّريقِ، وأَتَنحنحُ كُلَّما التفَتَ أحَدٌ نحوَ البابِ فيُهروِلُ راكضاً.

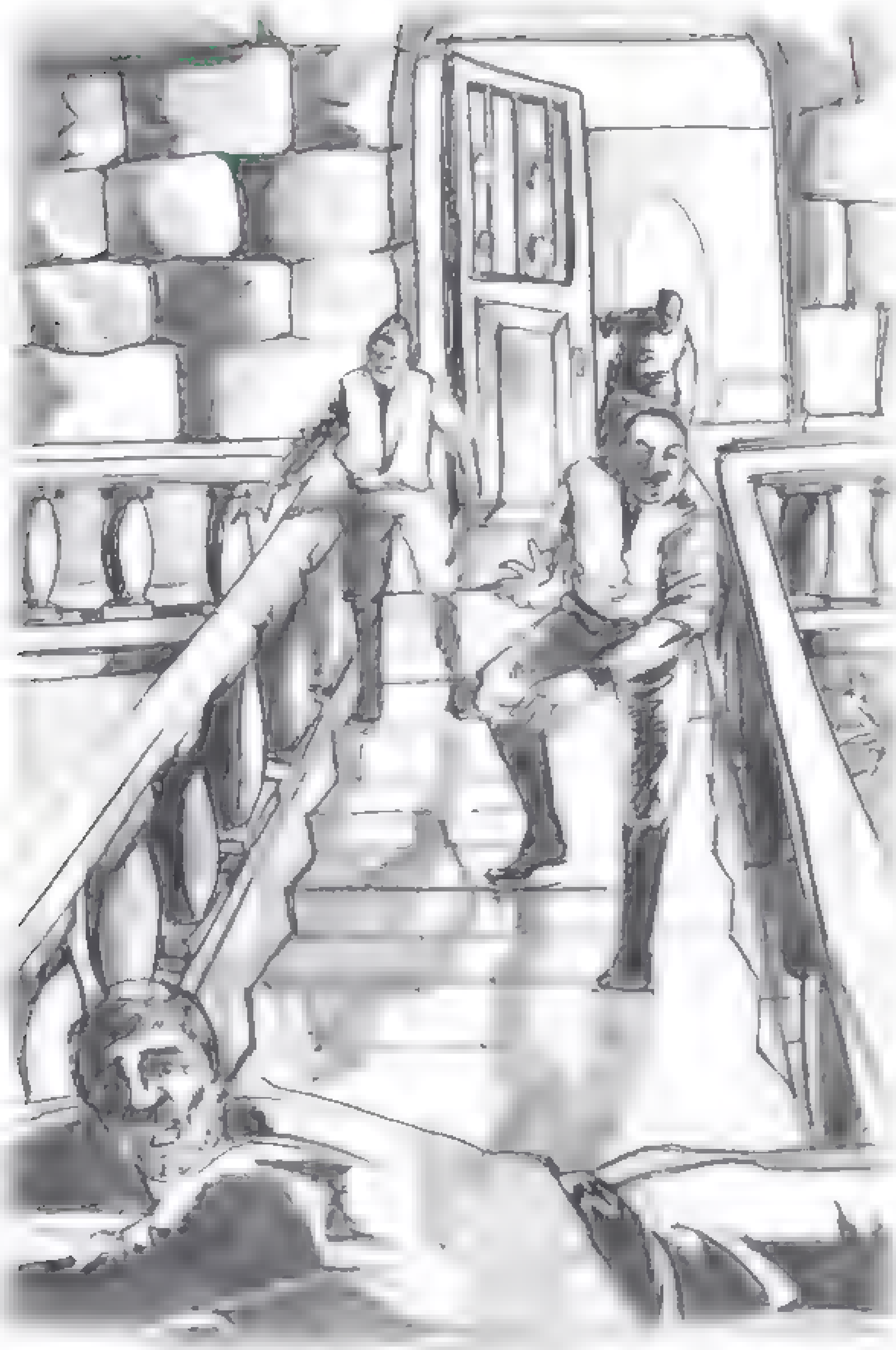
«يَقولونَ لكَ: **البَحبوحةُ** والمالُ مِن أَعراضِ الدُّنيا. لا تُصدِّقْهُم! البَحبوحةُ جَوهرُ الدُّنيا ولَذّتُها. لقدِ استطعَمْتُ نكهةَ البَحبوحةِ في تلكَ الأيّامِ، **والمظروفُ** يَأتيني في آخِرِ الشّهرِ، وإكراميّاتُ الزّبائنِ لا تَخلو مِن رفضٍ مِن قِبَلي وتـمنُّعٍ. ثمَّ صِرتُ مَعَ الأيّامِ أتقبَّلُ الإكراميّةَ مُنحنياً بالشُّكرِ. ثمَّ أَصبحَتْ **عَيني بَلْقاءَ** ـ لا

الشّاكريّةُ: لفظةٌ عامّيّةٌ تعني نوعاً من السّكاكينِ معقوفَ الرّأسِ.
البَحبوحةُ: الرّغدُ والرّفاهُ في العيشِ.
المظروفُ: ما يوضَعُ داخِلَ الظَّرفِ.
العينُ البلقاءُ: تعبيرٌ عامّيٌّ عَنِ الوقاحةِ وعَدمِ الحياءِ.

تؤاخِذْني على هَذه الكَلمةِ ـ وصِرتُ أَطلبُ الإكراميّةَ بتذلُّلٍ. والمالُ أُنفِقُه عَن سَعَةٍ. ويُتاحُ لي أَنْ أدخلَ أحياناً صالةَ اللَّعبِ فيَجذِبُني العالَمُ المسحورُ وشَيطانُ الذَّواتِ الأنيقُ الضّاحكُ كرَنينِ الذَّهبِ. واللّاعبونَ أَراهُم مِن صنفٍ آخرَ مِنَ البَشرِ، يَستكبرونَ عَليَّ، أنا البَطلَ أَبا الهِمّاتِ. وبَيني وبَينَهُمْ بِذلاتٌ أنيقةٌ، وخَواتمُ برّاقةٌ، وعَرَباتٌ تَجرُّها الخيولُ.

«ومَضتِ الكبرياءُ تَستنجِدُ بالتّقليدِ، فحزَمْتُ أَمري على ارتيادِ الأَماكنِ الّتي تُدارُ فيها الرّوليتُ، خارجَ مُحيطِ الشّيخِ. فأَدركَ الشّيخَ الخبرُ فأَنذرَني. ثمَّ عنّفَني. ثمَّ لـمّا لَم يَنفعِ الإنذارُ والتّعنيفُ طَردَني مِن خِدمتِهِ لأَنّي فقدْتُ العنفوانَ، فأَحلَّ مَحلّي «زَلْمَتَهُ» «الحمارَ» ـ لا تَستغرِبْ! هَكذا كانوا يُلقّبونَ «زَلماتِهِم»، فالمَشايخُ يَتَسلَّوْنَ بتحقيرِ الأَتباعِ ويَعُدّونَ ذلكَ زيادةَ شَرفٍ وغَوايةٍ! المُهمُّ... مَن كانَ يقولُ إنَّ «البَطلَ» يَقبلُ

زَلْمةُ فلانٍ عامِلُهُ وتابِعُه الّذي يعقّدُ أوامرَه وتعليماتِه (عامّيّةٌ).
الغَوايةُ: الضّلالُ والخيبَةُ.



الإهانةَ ويسكُتُ على تَحدّياتِ «الحمارِ»؟؟!»

ومَضى مُحدِّثي يَضحَكُ بالتّقهقُرِ، كَمَنْ يُدحرِجُ أثقالاً متفرّقةً على درجاتِ سُلَّمٍ حجريٍّ. ثمَّ أكملَ جادّاً:

ـ العادةُ... العادةُ... مَن يَقدِرْ أَنْ يَكسِرَ على النَّمِرِ مرّةً واحدةً، فقَدْ أخذَ وَهْرَتَهُ وانتهى الأمرُ. أمّا أنا فقَدِ استَوْلى عليَّ الشّيخُ معَ أوّلِ مظروفٍ أَخذتُه مِن يدِهِ شاكراً، ثمَّ انتهى الأمرُ عندَما طردَني زَلْمَتُهُ طَنّوسُ الحمارُ ذليلاً.

«وازدادَتْ سوسةُ اللَّعِبِ تملُّكاً بي. ومِثْلَ جميعِ اللّاعبينَ لَم أُوفَّقْ. كانَتْ دائماً بَيني وبَينَ الثَّروةِ دَورةُ دولابٍ واحدةٌ. تَصوَّرْ! ولَكِنَّ الحظَّ يَأبى دائماً أَنْ يَستجيبَ.

«أوّلَ مرّةٍ دخلْتُ بابَ المُرابي، وقفْتُ أمامَهُ خجِلاً. ثمَّ صِرْتُ أَقِفُ ببابِهِ متذلّلاً متوسّلاً، ثمَّ لاثماً يدَيْهِ داعياً له بطولِ العُمرِ، بعدَ رهنِ الأملاكِ وتشديدِ الشّروطِ، حتّى اضطُرّتِ المِسكينةُ أمُّ الأولادِ أَنْ تَذهبَ للخدمةِ

في بيوتِ النّاسِ. ومِن ذَلكَ اليومِ ماتَ يوسفُ الفَحْلُ، وتعلّقَتْ هامتُه برَقَبتي لِلانتقامِ له.

«ماذا؟ أَتسألُني كيفَ قتلْتُه؟ أَلَمْ تعرِفْ بعدُ أَنَّ يوسفَ الفَحْلَ هو أنا... أنا بالذّاتِ؟! أَلَم تعرِفْ؟»

ومَضى يَبتعدُ عنّي، ويَملأُ القاعةَ بضجيجٍ حزينٍ.

قصة

عُلبةُ الذِّكرَياتِ

فجأةً هاجَتِ الأمواجُ هياجَها، تلكَ اللّيلةَ، ودخلَ البيتَ مِنَ **الكُوّةِ** صفيرٌ أشبهُ بغضبِ الطّبيعةِ والسّماءِ، وانهَمرَ المطرُ في الخارجِ غزيراً. كانَ أخي الصّغيرُ يَلهو وسَطَ البيتِ. وتجمَّعَ الشَّيخُ على نفسِهِ متأفِّفاً. ودَخلَتْ أمّي وهِيَ تُغلقُ البابَ وراءَها بسرعةٍ، لتَمنعَ حبّاتِ المطرِ مِنَ الدّخولِ معَها، ثمّ مضَتْ تُعِدُّ الطّعامَ في زاويةٍ أُخرى. وإذا بالبابِ يُطرَقُ بعُنفٍ، ويَعْقُبُ الطَّرَقاتِ المُتَتاليةَ صوتٌ عصبيٌّ يستغيثُ كثَورٍ مذبوحٍ.

سادَ البيتَ **وُجومٌ** مِنَ الخوفِ. والتفتَتْ أمّي إلى

الكُوّةُ: النّافذةُ الصّغيرةُ (الطّاقةُ بالعامّيّة).

الوُجومُ: السّكوتُ والعجزُ عن الكلامِ، من شدّةِ الغيظِ أو الخوفِ أو الحزنِ.

الزّاويةِ الّتي يُقيمُ فيها الشّيخُ تَتوسّلُ بنَظَراتِها تفسيراً تَخرُجُ به مِن قلقِها الشّديدِ. وتَوقّفَ أخي الصّغيرُ عَنِ اللَّعبِ كأنَّهُ يُشاركُنا في القلقِ. ولَم يبقَ منّا هادئاً إلّا الشّيخُ الضّريرُ. فقَدْ ظلَّتْ نَظَراتُه ثابتةً في مكانٍ غَيرِ محدَّدٍ، وقالَ:

ـ قُمْ يا صبيُّ! افتحِ البابَ لِنرى مَنِ القادمُ!

وسألْتُ جَدّي قبلَ أَنْ أنهضَ:

ـ مَن تُراهُ يكونُ؟!

خرجَ الشّيخُ عَن طورِ هدوئِهِ المُعتادِ، وهتفَ مؤنِّباً:

ـ عجِّلْ! عجِّلْ! عَسى أنْ يكونَ الفَرَجُ قريباً.

ومَضى يَفرُكُ بيَدَيْهِ، ويَستعجِلُ الثّوانيَ المتراكضةَ أمامَ بصرِهِ المُطْفأِ.

لَم أكُنْ أَعرِفُ أَنَّ جَدّي يَنتظرُ مِن دهرِهِ شيئاً، بعدَما رَماهُ الدّهرُ بأفجعِ ما يُرمى به رَجلٌ في مثْلِ سنِّهِ. لَم أكُنْ أَتصوَّرُ أَنَّ نفسَهُ تَهفو إِلى أمَلٍ أو تَرجو رجاءً! كانَ كلُّ

هفا إلى الشّيْءِ: مالَ إليْهِ وذهبَ في أثرِهِ

ما في حياتِهِ يسيرُ ببُطءٍ على إيقاعٍ واحدٍ، كأَنَّهُ يَمضَغُ أيّامَهُ مضْغاً متواصلاً رتيباً...، فأيَّ فَرَجٍ ينتظِرُ؟!

ظَلَّتْ صورةُ جَدّي مقرونةً في أذهانِنا بذَلكَ البيتِ المرفوعِ على البحرِ. تَدخلُه الرّياحُ الشّتَويّةُ مِن كُوّةٍ في أَعلى الجِدارِ، وتَزورُه أَغاني الموجِ، وأَساطيرُ البحّارةِ القُدامى، وأَطيافُ مغامراتِ السّندبادِ. والواقعُ أَنَّ جَدّي لَم يَبرَحْ ذَلكَ البيتَ المربَّعَ، وقدْ قامَ كعُلبةٍ وُضِعَتْ فوقَ الشّاطئِ، ثُقِبَتْ مِن أَعلاها فكانَتِ الكُوَّةُ، وثُقِبَتْ في صدرِها فكانَ البابُ. كُنّا نَراهُ دَوماً عِندَ الزّاويةِ، وكأَنَّهُ لا يَزالُ هُناكَ، بوَجنتَيْهِ المورَّدتَيْنِ فوقَ شاربَيْنِ كثيفَيْنِ ابيضَّتْ شَعراتُهما معَ السّبعينَ، وتَقطّبَ حاجباهُ بعَبسةٍ مُزمِنةٍ بَينَ عينَيْنِ تبرُقانِ بحِدّةٍ كأَنَّهُما تَخترقانِ شيئاً مجهولاً. ومعَ انطفاءِ النّورِ في عَينَيْهِ لَم نكُنْ نُصدِّقُ أَنَّهُ أَعمى؛ فالبَريقُ الحادُّ ظلَّ يَشِعُّ بَينَ جَفنَيْهِ، فيَزيدُ الشّيخَ إبهاماً وغَرابةً، و**يُضفي** على

الرّتيبُ: الدّائمُ الثّابتُ على وتيرةٍ واحدةٍ.
يُضفي: يُفيضُ ويُبقي.

أَحاديثِهِ حَلاوةً وطَلاوةً.

عادَ جَدّي يَحُثُّني بعُنفٍ:

ـ قُمْ يا بُنيَّ! لعلَّ الفَرَجَ قريبٌ. قلْتُ لكَ: لعلَّ الفَرَجَ قريبٌ!

لَو لَم يعلّقْ عَينَيْهِ بأَعلى الجدارِ تأهُّباً وانْتِظاراً وشَغَفاً، لَظَننْتُ العبارةَ صدرَتْ عنْهُ بغيرِ وَعيٍ. كانَتْ عَيناهُ الـمُطفَأتانِ تتَّسِعانِ حتّى تَشْمُلا البيتَ كلَّهُ.

فلَمّا استَبْطَأني، مدَّ يدَهُ حولَ **الدَّكّةِ** الّتي يَجلِسُ علَيْها، يَبحثُ عَن شَيءٍ. وقالَ:

ـ هاتِ العصا يا ابْني! أنا سأَفتحُ!

كانَ الصّوتُ المستغيثُ في الخارجِ قدْ بدأَ يَخفُتُ نَوعاً ما، ثُمَّ يَتَحوَّلُ إِلى ألوانٍ مختلِفةٍ بَينَ الأَنينِ، واللُّهاثِ الجاهدِ، والنّداءِ المخنوقِ؛ **فاستحَثَّ** هَذا التَّحوّلُ همّةَ الشَّيخِ، فلَمْ يَنتظرْ عَصاهُ، بلْ قامَ مِن

الشَّغفُ: أقصى الحُبِّ.
الدَّكّةُ: بِناءٌ يُسطَّحُ أعلاهُ للجلوسِ علَيْهِ، أو لوَضعِ كرسيٍّ فوقَهُ.
استَحثَّ: حضَّ ونشَّطَ.

مَوْقِعِهِ، فرأيْتُ، لأوّلِ مرّةٍ في حياتي، تلكَ الدَّكّةَ فارغةً مِنْهُ!

كانَ موتُ أبي، قبلَ ذلكَ بسنواتٍ قليلةٍ، أبشعَ ما نذكُرُه مِن أيّامِ الصِّبا. فقَدْ ظلّلَتْنا، بعدَ أنْ غابَ عنّا في تلكَ الظّروفِ الغامضةِ، كآبةٌ طويلةٌ وحزنٌ صامتٌ مستمرٌّ. لَم نكُنْ نَجرؤُ على التَّلفُّظِ باسمِهِ، أو السّؤالِ عَنْهُ، بعدَ أَنْ لاحظْنا أيَّ **الْتِياعٍ** كانَ يَقتلعُ قلبَ أُمِّنا مِن صَدرِها كُلَّما سَمِعَتْنا نَتحدَّثُ عَنْهُ. وغالباً ما كانَ الصَّمتُ الكبيرُ يَنعصرُ في دمعتَيْنِ مُحرِقتَيْنِ تَنحدرانِ مِن عَينَيْها اللّؤلؤيّتَيْنِ. وتغيّرَتْ في حياتِنا أشياءُ كثيرةٌ بعدَ ذَلكَ، إلّا أَنَّ مُتعتَنا الكُبرى كانَتْ يومَ نَلجأُ إلى كَنَفِ جَدِّنا في البيتِ البَحريِّ، فنَشتَمُّ في ظلالِ الشّيخِ رائحةَ أَبينا الغائبِ. لَم نكُنْ نَستطيعُ تَصوُّرَ الشّيخِ أَعمى؛ فإذا أدارَ وجهَهُ نحوَ **اليوكِ** الّذي تَكدَّسَ فيه مخزونُ القمحِ والزّبيبِ والكِشْكِ والبُرغلِ الأسمرِ والتّينِ المعقودِ

الالتياعُ: احتراقُ القلبِ من شدّةِ الحُزنِ والهمّ.
اليوكُ: ناحيةٌ من البيتِ تُحفظُ فيها المونَةُ.

بالشُّكْرِ، كنّا على يقينٍ تامٍّ أَنَّهُ يَرعى بِناظِرَيْهِ صُندوقَ الـمُؤَنِ ويَحسُبُ في سرِّهِ حسابَ الأيّامِ الباقيةِ مِنَ العامِ، حتّى إذا اطمأنَّ إلى أنَّ المخزونَ يَكفي **رَيْثما** يَقدَمُ المَوسمُ التّالي، استبشرَ وارتاحَ وهدأَتْ نَفسُه، فمَضى في ما هو فيه.

كنّا نَنتظرُ أيّامَ العُطَلِ الـمدرسيَّةِ بِشَغَفٍ، لِنُمضيَ الوقتَ أمامَ الشّيخِ الثّابتِ في مكانِهِ مِن زاويةِ البيتِ البحريِّ، مغمورينَ بالدّفءِ والأَساطيرِ. وكنّا نَعْجَبُ مِن أَينَ تَأتيهِ الأخبارُ **الوفيرةُ** حينَ كانَ لا يَبرحُ الزّاويةَ، ولا يَزورُه مِنَ النّاسِ أَحدٌ، اللّهُمَّ إلّا صديقَهُ الوحيدَ أبا رامزٍ المُكارِيَ، الملقَّبَ بِعَنترِ الزّمانِ!

لَقَدْ كنّا نَترقَّبُ معَ الشَّيخِ هبوطَ اللّيلِ وقُدومَ أَبي رامزٍ يَزورُ صديقَهُ في العَشيّاتِ، فيَجلِسُ إلى جوارِهِ يُسلّيهِ عَن حُزنِهِ ويَتسلّى به، ويُخفِّفُ عَنْهُ كآبَتَهُ، ويُلهيهِ عَن أَساهُ. وغالباً ما يَتحدَّثُ الرَّجلانِ **الهَرِمانِ** بألفاظٍ

رَيثما: مقدارَ الـمُهلةِ مِنَ الزّمنِ.
الوفيرةُ: الكثيرةُ.
الهَرِمانِ: العجوزانِ، الشّيخانِ.



غريبةٍ علَيْنا، كقِصصِ البِحارِ البعيدةِ والجُزرِ الـمُهمَلةِ، يَتبادلانِها مِن فوقِ أفهامِنا الصّغيرةِ. ويَتّصلُ الحديثُ بالحديثِ خلالَ كَلمةٍ تُلقى سريعاً، وآهةٍ يَعقِبُها وُجومٌ كفراغِ الهواءِ في طريقِ رياحٍ خفيّةٍ.

تلكَ اللّيلةَ نهضَ عَنترُ الزّمانِ عَن جِوارِ صديقِهِ، كأنّهُ يَقتلعُ نفسَهُ عَنْه اقتلاعاً. وهَمْهَمَ الشّيخُ القاعدُ في الزّاويةِ، بعدَ أنْ جمعَ رِجليْهِ وصفَّقَ بيدَيْهِ وضربَ بِهِما على رُكبَتِهِ مُوقِّعاً كلامَهُ:

- السّهرةُ بأوّلِها يا عَنترَ الزّمانِ.

- عَنترُ كانَتْ له أيّامٌ يا بو صُبْحي.

شدَّدَ على الكَلمةِ الأخيرةِ مِن غَيرِ أنْ يَقصِدَ. ولَطالَما تَحاشى عَن أنْ يَذكرَ هَذا الاِسمَ الّذي يَفتحُ في صدرِ الشّيخِ جروحاً. فلَمّا خرجَتْ مِن فمِهِ أخذَ يَتبرّأُ مِنْها بحركاتٍ تدُلُّ على انزعاجِهِ. كانَتِ الكَلمةُ كافيةً لتَحريكِ الحُزنِ الدَّفينِ. فذبُلَتْ عَينا جَدّي، واتّكأَ

همْهَمَ: تكلَّمَ كلاماً خفيّاً وغيرَ مفهومٍ.

برأسِهِ على كَتِفِهِ ذليلاً، وفركَ يدَيْهِ على رُكبتِهِ مِراراً. ومَضى يُردِّدُ:

ـ اللهُ! اللهُ!

لَم يَدرِ عَنترُ الزّمانِ كيفَ يَعتذرُ إلى صديقِهِ، فارتبَكَ وتَعثّرَتْ رِجلُه بعَربةِ أَخي الصّغيرِ وهو يُغادرُ البيتَ. ثمَّ اختفى في الظّلامِ.

لِذا كانَتْ نَظَراتُنا تَتساءلُ ونحنُ نَسمعُ الطَّرَقاتِ وأصواتَ الاستغاثةِ:

تُرى هَلْ أصابَ أبا رامزٍ مكروهٌ؟

مَشى الشّيخُ على تردُّدِنا، بخُطُواتٍ ثابتةٍ، ولَم يَنتظِرْ مِن أَحدٍ أَنْ يَقتادَهُ. فلَمّا وَصلَ البابَ عالجَ **المِزلاجَ** بخِفّةٍ، فانفتحَ المِصراعانِ، وهبّتْ مِنْهُما عاصفةٌ كادَتْ تَقتلعُ البيتَ مِن جذورِهِ. هربْتُ أَختبئُ وراءَ فُستانِ أمّي، فانحنَتْ بدَورِها تَلتقطُ أخي الصّغيرَ وتَضمُّه إلى صدرِها بقوّةٍ ضدَّ الرّياحِ والبرْدِ. ولمّا عادَ

المِزلاجُ: ما يُستعمَلُ لإغلاقِ البابِ.

جَدّي كانَ وَجهُه متهلِّلاً، تَلعبُ الرّيحُ بشَرّابةِ قُبّعتِهِ الصّوفِ، ويَتراقصُ شارباهُ فرحاً. كانَ يَجُرُّ وراءَه جثّةَ رَجُلٍ **تَتضرّجُ** بدمائِها. فلَمّا وَصلَ بها إلى **صَحنِ الدّارِ** ألقى بها أرضاً وهتفَ بأمّي:

ـ هاتي القِنديلَ يا سُمَيّةُ وانظُري في وجهِ هَذا الرّجلِ، **وتَفرّسي فيه** جيّداً، وقولي ما تَرَيْنَ!

كانَ اللّصوصُ المسلّحونَ يَتسرّبونَ إلى قريتِنا ويُلقونَ الرُّعبَ بَينَ المُزارعينَ، كُلّما غفَلَتْ عيونُ رجالِ الأمنِ. وقدْ كنْتُ يَوْمَذاكَ صغيراً لا أَفقَهُ مَعانيَ هَذه الأحداثِ، إلّا مِن خلالِ أبي الّذي كانَ يبدو دائماً مُكفهِرَّ الوَجهِ بقامتِهِ المديدةِ، وعِنادِهِ، وثَباتِهِ. كانَ أبي في حقلِهِ، فاعترضَهُ رجالُ العصابةِ. شَتَموه فلَمْ يُجِبْ. وسألوهُ عَنِ الطّريقِ إلى قريتِنا فلَمْ يُجِبْ. وقالَ رئيسُ العصابةِ:

تتضرّجُ: تتلطّخُ.
صحنُ الدّارِ: ساحَتُها أو وسطُها.
تفرّسَ فيه: نظرَ إليْهِ مليّاً وثبّتَ نظرَهُ فيه.

ـ لعلّهُ أخرسُ لا يَتكلّمُ، أو أصمُّ لا يَسمعُ!؟ سنُجرِّبُ على كلِّ حالٍ، هَلْ يَستغيثُ إذا اخترقَ الرّصاصُ جسدَهُ!

وأخذَ مسدّسَهُ بيدِهِ وجعلَ يَتسلّى به قبلَ أَنْ يُطلِقَ الرّصاصةَ القاتلةَ. يُخبرُنا المُزارعونَ الّذينَ كانوا في الحقلِ، أنَّ أبي لَم يَستغِثْ عندَما سقطَ في حقلِهِ كغصنِ شجرةٍ يَهوي إلى الأرضِ!...

عندَما جاءَتْ أمّي بالقِنديلِ، سقطَ مِن يدِها وصرخَتْ بذُعرٍ:

ـ هَذا رئيسُ العصابةِ!

تنهَّدَ الشّيخُ بارتياحٍ، ومَضى إلى دَكّتِهِ يَجلِسُ فيها مطمئنّاً. فأغلقَتْ أمّي البابَ، ووقفَتْ تُسنِدُه بظَهرِها متصلّبةً خائفةً. قالَتْ للشّيخِ وهي تُوَلولُ:

ـ عمّي! ما العملُ؟ لعلّهُم يَأتونَ هُنا للبحثِ عَنْهُ.

ـ لِيَبْحثوا. وسَوفَ يَجدونَهُ كما تَرَيْنَ!

لَم تمضِ لَحظاتٌ حتّى كانَ بيتُنا الصّغيرُ يَغُصُّ بأهلِ

متصلّبةً: متشنّجةً.

القريةِ. ومضَيْتُ أتفرّسُ في وجوهِهِم في ضوءِ مصباحِنا **الشّاحبِ**، فلَمْ أجدْ وجهَ عَنترِ الزّمانِ بينَ الموجودينَ، فمضَيْتُ أبحثُ عَنْهُ طويلاً. لَم يكُنْ منتظراً أنْ يَترُكنا في تلكَ اللّحَظاتِ الحاسمةِ.

انعقدَ المؤتَمرُ في البيتِ الصّغيرِ، وأدلى كلٌّ برأيِهِ. وبقيَ الشّيخُ **سادراً** في مَوضِعِهِ مِنَ الزّاويةِ، تَشعُّ مِن داخلِهِ غِبطةٌ روحيّةٌ عميقةٌ كانَتْ تَخطَفُهُ باستمرارٍ عمّا يَجري حولَهُ، وتَشدُّه إلى تأمّلاتٍ لذيذةٍ. فجأةً توضَّحَ لي كلُّ شيءٍ مِن خلالِ الضّجيجِ الكثيفِ. وهَتفَ هاتفٌ:

- لنُبعِدْهُ مِن هُنا!

وقالَ آخرُ:

- لعلّهُم يَنتقمونَ مِنَ القريةِ كُلِّها بسببِهِ.

وفَتلَ أحدُهُم شاربَيْهِ قائلاً:

- يا جماعةُ تَصرّفوا كالرّجالِ. إذا لَم نَتصرّفْ

الشّاحبُ: المهزولُ والمتغيّرُ اللّونِ، وهُنا المقصودُ الضّعيفُ الضّوءِ.
سادراً: ممدَّداً.

بشجاعةٍ مَعَسونا في أرضِنا ودَعَسوا على رِقابِنا.

واعترضَ شابٌّ بحماسةٍ مقرونةٍ بالأَسى:

ـ ليسَ في بيوتِنا إلّا العِصيُّ وبنادقُ الصَّيدِ!

خرجَ جَدّي عَن صمتِهِ لأوّلِ مرّةٍ، وهتفَ مترنِّماً:

العِصيُّ للكلابِ! لِيَأتوا! واللهِ لَن أَبرَحَ هَذه الزّاوية ولَوْ جاؤوا **بطابورٍ** مِنَ العسكرِ.

قالَ فارسٌ أبو سِمعانَ:

ـ ولَكِنَّكَ هُنا بِلا سلاحٍ، أَعمى ضريرٌ! ونحنُ لا نَقدِرُ أَنْ نَحمِيَكَ!

قالَ جَدّي:

ـ وماذا تُريدونَ مِنّي؟ أَنْ أغادرَ بيتي وأَترُكَ أرضي؟

ـ ولَكِنَّهُم مُسلّحونَ!

ضحكَ الشّيخُ وتلمّسَ عَصاهُ. ثمَّ أَخذَ يُديرُها بينَ يدَيْهِ في **حُبورٍ**:

ـ اليومَ نِلْتُ ما كنْتُ أَشتاقُه. سُبحانَ اللهِ، **حَدْسي**

الطّابورُ: وحدةٌ عسكريّةٌ تضمُّ عدّةَ سرايا.

الحُبورُ: السّرورُ والبهجَةُ.

الحَدْسُ: الإحساسُ المُسْبَقُ بحصولِ الأُمورِ.

لا يَخيبُ! كنْتُ متوقّعاً أَنْ يأتيَ الفرَجُ. وقدْ أتى كما تَرَوْنَ. لَو مُتُّ قبلَ أنْ يُقتلَ قاتلُ ابني صُبحي لكانَتْ حياتي أَذلَّ مِن بَرغشةٍ.

وعَلا صوتٌ مِنَ المجتمِعينَ:

ـ لَكِنَّهُم سيَقتُلونَكَ يا أبا صُبحي!

ورَدَّ الشّيخُ بسرعةٍ وحَسْمٍ:

ـ قَتلوا مِن قَبْلي صُبحي!

هَمدَ الصّراخُ تهيُّباً أمامَ العبارةِ الأخيرةِ. فالتفَتُّ إلى أمّي أَسألُها:

ـ مَن قَتلَ الرَّجلَ يا أُمّاهُ؟

تَفجّرَتْ نَظَراتُها بالحِقدِ **المُتَشفّي** وهِيَ تَنظرُ إلى النَّجمةِ البرّاقةِ على صدرِ الرَّجلِ القتيلِ. إنَّ أبي لَم يَستغِثْ عِندَما سقطَ في حقلِهِ كغصنِ شجرةٍ يَهوي إلى الأرضِ. أمّا رئيسُ العصابةِ فقدِ استغاثَ كالنِّساءِ، ووَلْولَ أمامَ بيتِنا قبلَ أنْ تَهمُدَ أنفاسُه. وهَذا ما أَدخلَ إلى

المُتَشفّي: الشّامتُ نكايةً بعدوِّه.

قلبي الصّغيرِ بعضَ العَزاءِ. وأَعَدْتُ السّؤالَ بحماسةٍ:

ـ مَن قتلَ الرّجلَ يا أُمّاهُ؟

نظَرَتْ في وجوهِ النّاسِ ولَم تُحِرْ جواباً. كانَتْ تَبحثُ مِثلي عَن وجهِ عَنترِ الزّمانِ فلا تجِدُهُ بَينَ الوجوهِ الكثيرةِ. وهَمسَتْ في أُذني قائلةً:

ـ لعلّهُ عمُّكَ عَنترُ الزّمانِ.

ولمّا عادَ الضّجيجُ هتفَ جَدّي بأعلى صوتِهِ، فخَبَتِ الأصواتُ كلُّها:

ـ عبثاً، لا تُقنِعوني. هُنا سأَبقى!

بعدَ يومَيْنِ كانَ علَينا أنْ نترُكَ الشّيخَ وحيداً ونَعودَ إلى المدينةِ لِاستئنافِ الدّروسِ. وقدْ بَلْبَلَتْ هَذه الأحداثُ مُخيّلتي الصّغيرةَ، وسألْتُ أمّي في الطّريقِ:

ـ أينَ عَنترُ الزّمانِ لَم نبقَ نَراهُ!

زجرَتْني أمّي بيَدِها وقالَتْ:

ـ اسكتْ! عَنترُ الزّمانِ بطلٌ، ولَوِ اكتسى رأسُه بالشّيبِ.

زجرتْني: منعتْني ونهتْني.



وازدحَمَتْ في ذِهني أسئلةٌ كثيرةٌ: «جَدّي! لماذا لا يأتي معَنا إلى المدينةِ؟ ماذا سيُصيبُه بَينَ الجُدرانِ الأربعةِ على شاطئِ البحرِ؟.. ماذا لَوْ هبَّتِ الرّياحُ مرّةً ثانيةً، وتَساقطَ المطرُ غزيراً، ودخلَتِ الزّوابعُ إلى البيتِ مُجدَّداً؟!

ومِن بَراءتي قفزَ السّؤالُ مِن شفتيّ:

ـ أمّي! أليسَ القتلُ حراماً؟

زَجرتْني مرّةً ثانيةً، كما زَجرتْ دموعَ عَينَيْها، وراحَتْ تَنظُرُ إلى الحقولِ تَختفي وراءَنا، فيَغيبُ عَن أَعْيُنِنا البيتُ البحريُّ خلفَ الأمواجِ... لآخرِ مرّةٍ.

الاستثمارُ التّربويُّ

1 عِنَبُ تِشرينَ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 في أيِّ عمرٍ أُحيلَ الأُستاذُ عبّود على التّقاعُدِ؟ كيفَ استنتجتَ هذا؟

2. لماذا وصفَ الكاتبُ كلّاً منَ المُختارِ والأُستاذِ عبّود بالحبليْنِ؟

3 كيفَ بدَتْ لكَ شخصيّةُ المُختارِ، يومَ التّسجيلِ؟ علِّلْ إجابتَكَ بالاستنادِ إلى تصرّفاتِهِ.

4 ما الأمرُ الخاصُّ الّذي جاءَ لأجلِهِ الأُستاذُ عبّود عندَ الأُستاذِ الجديدِ؟

5 لماذا كانَ الأُستاذُ عبّود حزيناً في اليومِ الأوّلِ مِن تقاعُدِهِ، بدلاً مِنْ أنْ يكونَ فَرِحاً لارتياحِهِ مِن مَشقّةِ التّعليمِ؟

6. كيفَ ماتَ الأُستاذُ عبّود؟ وكَيفَ استنتَجْتَ الأمرَ؟

7 في هذه القصّةِ شخصيّاتٌ مُتعدّدةٌ، رئيسةٌ وثانويّةٌ؛ صنّفْ كلّاً منها في المجموعةِ الّتي تناسبُها:

- الشّخصيّاتُ الرّئيسةُ: ....

- الشّخصيّاتُ الثّانويّةُ: ....

2 مِن وَحْيِ النّصِّ

1 في أيِّ عمرٍ يُحالُ الموظّفون (الأساتذةُ وغيرُهم) على التّقاعُدِ

في لبنانَ؟ وهل هو العمرُ نفسُه الّذي أُحيلَ فيه الأستاذُ عبّود؟

2 ما معنى أنْ يُحالَ الإنسانُ على التّقاعُد؟ وما التّقديماتُ الّتي تضمَنُها له الدّولةُ؟

3 هَل تعتقِدُ أنّ في لبنانَ اليومَ مدارسَ كالمدرسةِ الّتي وردتْ في القصّةِ؟ علّلْ إجابتَكَ استناداً إلى معلوماتٍ تجمَعُها.

4 ما الإنطباعُ الّذي تكوّنَ لدَيْكَ عَن أهلِ القُرى، في مُعاملتِهِم للضّيفِ عموماً، وللأستاذِ خصوصاً؟

5 هَل تَرغبُ في أنْ تكونَ أستاذاً في المستقبلِ؟ لماذا؟

6 إذا كانتْ إجابتُكَ عَنِ السّؤالِ الخامسِ بالإيجابِ، فأيّ مادّةٍ تحبُّ أنْ تعلّمَ؟ ولماذا؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 استخرِجْ مِنَ القصّةِ خمسَ عباراتٍ وصفَ فيها الكاتبُ حالةَ الأسى والعذابِ الّتي كانَ عليْها الأستاذُ عبّود.

2 أَعِدْ صياغةَ الفكرةِ في كلٍّ مِنَ العباراتِ التّاليةِ، بلُغتِكَ أنتَ، محاولاً ألّا تَستعملَ مفرداتِ العبارةِ نفسَها، متمثّلاً النّموذجَ التّالي:

- ثِقْ بأنّكَ تُلقي بسِرِّكَ في موضعٍ كَنينٍ
  - كُنْ على ثقةٍ بأنّ سرّكَ في بئرٍ عميقةٍ.
  - تيقّنْ أنّ سرّكَ محفوظٌ في مكانٍ مأمونٍ.
- نظرْتُ إليْه بأسىً، وكانَ بوُدّي أنْ أُخفّفَ عَنْه.
- كانَ هَذا اليومُ أثقلَ أيّامي وطأةً وعذاباً.
- آنسَ مِن مُوافقتي تشجيعاً على المضيِّ في حديثِه.

3. استخرِجْ مِن المقطعِ التّالي: «بدَتْ بيوتُ «حوشِ اللَّوزِ».. هذا هو المعدِّمُ الحديدُ!» النَّعتَ ومنعوتَهُ.

24 الصُّراخُ والطّائرُ الملوَّنُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. في أيِّ مكانٍ تَبدأُ أحداثُ هَذه القصّةِ؟ ما دليلُكَ عليْهِ؟
2. مَن هو «الحرادُ»؟ ولماذا لقّبَهُ أهلُ القريةِ بهذا «اللّقبِ»؟
3. قالَ الكاتبُ عنِ «الحرادِ»: «كانَ أثاثُ بيتِهِ نظيفاً على خلافِ ما كنتُ أتوقّعُ»؛ لماذا كانَ الكاتبُ يتوقّعُ أنّ بيتَ «الحرادِ» غيرُ نظيفٍ؟
4. ما معنى العبارةِ الّتي ردّدَها «الجرادُ»: «إذا كانتِ الشّمسُ أمينَتكَ، فلا تقبِضْ عليْها لئلّا تستحيلَ رماداً»؟
5. إلامَ يرمزُ الطّائرُ الملوَّنُ في هَذه القصّةِ؟
6. لماذا تمنّى «الحرادُ» لو أنّهُ لم يعثُرْ على الطّائرِ، بعدما كانَ شديدَ الحماسةِ للقبضِ عليْهِ؟
7. ما المشهدُ الّذي كانَ الأكثرَ تشويقاً، في رأيِكَ؟ ولماذا؟

2 مِن وَحْيِ النّصِّ

1. أَتُحبُّ أنتَ صيدَ الطّيورِ، أمْ تفضّلُ أنْ تترُكَها تعيشُ بحرّيّةٍ واطمئنانٍ؟ علِّلْ إجابتَكَ بأسبابٍ مُقنعةٍ.
2. لو تمكّنْتَ مِنَ القبضِ على طائرٍ جميلِ الشّكلِ والصّوتِ، أَفتأسِرُهُ في قفصٍ أمْ تُطلِقُ سراحَهُ؟ لماذا؟

3 لو كُنتَ مع الكاتب ورفيقيه، فهل كُنتَ ابتسمتَ مثلَهُم ساخراً مِن اهتمامِ «الحرادِ» بالطّائرِ الملوّنِ؟ لماذا؟

4 قالَ «الحرادُ»: «وتحوّلَ الشّغفُ به إلى شفقةٍ عليه»، ألا يُمكنُ للشّغفِ والشّفقةِ أنْ يجتمعا في آنٍ معاً؟ لماذا؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 تخيّلْ حواراً دارَ بين «الحرادِ» والطّائرِ الملوّنِ، عندما قصّ عليه.

2 ضَعْ في العبارةِ الأولى ممّا يلي، كلمةَ «الطّيورِ» بدلاً مِنَ «الطّائرِ»، ثمّ غيّرْ في سائرِ الكلامِ ما يلزَمُ تغييرُه، واضبطْهُ بالشّكلِ التّامِّ.

«لقدْ شُغفتُ بهذا الطّائرِ الملوّنِ الّذي رأيتُه أوّلَ مرّةٍ فجأةً على غُصنِ زيتونٍ. كانَ طائراً عجيباً، في جناحَيْهِ ألوانٌ... فأجفلَ الطّائرُ وشالَ عَنِ الغُصنِ، فطارَ في اتّجاهِ الشّمسِ».

3 حدّدْ في المقطعِ التّالي: «وأحسستُ ذلكَ اليومَ... حتّى لقيتُه اليومَ في الموضعِ نفسِه»، سببَ نصبِ كلٍّ من الأسماءِ التّاليةِ:

- اليومَ: ______
- أملاً: ______
- خلفَ: ______
- علائمَ: ______
- التّاليةَ: ______
- يومَ: ______
- وسواسيّ: ______
- اليومَ: ______

4 حدِّدْ أوْجُهَ الشَّبه في كلٍّ مِنَ التَّشبيهاتِ التَّالية:

صدرُه كعُلبة المِنفخ: ______

وجهٌ كصفحة القِرش: ______

قُبّةُ الجرسِ بَيرقٌ ممزّقٌ: ______

مضى يبكي كالأطفالِ: ______

بعدَما تَساقطَ الثَّلجُ!

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 هَل صحيحٌ أنَّ المرأةَ بوقوفِها المفاجئِ والسّريعِ أمامَ الأولادِ، قدْ أوقفَتْ كلَّ حركةٍ مِن حولِها؟ وضِّحْ إجابتَكَ.

2 هَل كانَتِ المرأةُ تعتقدُ حقّاً أنّ سِداداتِ القناني نقودٌ؟ ما دليلُكَ؟

3 لماذا اعتبَرَ الأولادُ مروانَ أجدرَ مِنهم في كشفِ حقيقةِ هَذه المرأةِ؟

4 هَل كانَ مروانُ على حقٍّ في اعتبارِهِ هَذه المرأةَ شرّيرةً؟ لماذا؟

5 ماذا كانَتْ خِطّتُهُ في مواجهتِها؟

6 لماذا كانَتْ دهشةُ الكاتبِ وإخوتِهِ عظيمةً عندَ رؤيةِ الثّلجِ يكسو السّاحلَ؟

7 لماذا اعترَتِ الكاتبَ موجةٌ مِنَ القلقِ بعدَما سمعَ الحدَثَ المفظِعَ الّذي نقلتْهُ الصّحيفةُ؟ وكيفَ عبّرَ عَن هذا القلقِ؟

8 لماذا تغيّرَ مشهدُ لقاءِ الأولادِ المرأةَ نفسَها، عَن مشهدِ لقائِهِم إيّاها سابقاً؟

2 مِن وَحْيِ النَّصّ

1 هَل يُمكنُكَ أَنْ تُحمِّن في أيِّ منطقةٍ ساحيّةٍ حرتْ أحداثُ هَذه القصّةِ؟ عَلامَ تستنِدُ في تخمينِكَ؟

2 لو كُنتَ بينَ الأولادِ في هَذه القصّةِ، فهل كنتَ شاركْتَهُم في مطاردةِ المرأةِ بالعِصيِّ والقُضبانِ والحجارةِ؟ لماذا؟

3 أفي منطِقةٍ ساحليّةٍ تسكُنُ أمْ في منطقةٍ جبليّةٍ؟ وهَل شاهدْتَ الثّلج يوماً يغمُرُ النّاحيةَ الّتي تسكُنُ فيها؟ وكيف كانَتْ ردّةُ فعلِكَ؟

4 كيفَ تُعامِلُ أنتَ أمثالَ هذه المرأةِ المسكينةِ إذا صادفتَهُم يوماً؟

5 مَن يَتحمّلُ، في رأيِكَ، مسؤوليّةَ تشرُّدِ بعضِ الأولادِ في شوارعِ المدينةِ؟ لماذا؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 أخبِرْنا بواحدةٍ مِن شيطناتِكَ، إمّا منفرداً وإمّا بصُحبةِ بعضِ رفقائِكَ.

2 تخيّلْ حواراً دارَ بَينَ الأولادِ، بعدَما شعروا بتأنيبِ الضّميرِ على ما قاموا به تجاهَ المرأةِ المِسكينةِ.

3 استخرِجِ العباراتِ الّتي وصفَ بها الكاتبُ المرأةَ وصفاً خارجيّاً.

4 «ولفتَنا حدّاً البياضُ فوقَ القُبّةِ، والبياضُ فوقَ بُرجِ الجرسِ، والبياضُ في الشّارعِ...» لماذا كرّرَ الكاتبُ لفظةَ «البياضُ» في كلِّ مرّةٍ؟ وما أهمّيّةُ هَذا التّكرارِ في التّعبيرِ عَنِ المعنى؟

5 حوّلِ العبارة التّاليةَ إلى صيغةِ المثنّى، ثمّ إلى صيغة الجمعِ، معيّراً ما يلزمُ تغييرُه:
«توقّفت المرأةُ عن أيِّ حركةٍ، ولم تُحرْ جواباً، فكأنّها أرادتْ أنْ تُحدث الدّهشة الّتي تجذبُ إليْها الأنظار»

الخُطُواتُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 جاءَ في مَطلعِ القصّةِ: «القريةُ كلُّها تزحفُ»؛ إلى أينَ؟ وما المناسبةُ؟

2 لماذا لا يُشاركُ المعلّمُ سُليمانُ أهلَ القريةِ في فرحِهم بهذه المناسَبةِ؟

3 لماذا استرجعَ المعلّمُ سُليمانُ الحلُمَ المُزعجَ الّذي رآه يومَ كانَ ولداً؟وهل لهذا الحلُمِ علاقةٌ بما يجري في القريةِ؟ كيفَ؟

4 ما رأيُكَ في شَخصيّةِ أبي سُليمانَ مِن خلالِ معاملتِهِ لوَلدِهِ؟

5 هل كانتْ نصيحةُ أبي سُليمانَ لابنِه: «الصّنعةُ ذهبٌ أبيضُ وسرٌّ محتّمٌ» مفيدةً له؟ لماذا؟

6. في المقطَعِ الّذي يَبدأُ بِـ «وعبرَ وفدُ المُختارِ...» مَن كانَ المعلّمُ سُليمانُ يخاطبُ في قولِهِ: «ثلاثونَ عاماً أمْضيتُها... لغايةٍ وهو يمزّقُ حسدك بأنيابِهِ»؟ وعلامَ تدلُّ هذه المخاطبةُ؟

7 لِمَ لَمْ يتزوّجِ المعلّمُ سُليمانُ، في رأيِكَ؟

8 بِمَ كوفِئَ المعلّمُ سُليمانُ بعد كسادِ صَنعته الّتي خدمَ من خلالها أهلَ القريةِ على مدى ثلاثينَ عاماً؟

② مِن وَحْيِ النَّصِّ

1 ما الأعمالُ الّتي كان يقومُ بها السّكريُّ في الماضي؟ وما الأعمالُ الّتي يقومُ بها اليومَ في صَنعتِهِ؟

2 ما المِهنةُ أو الصَّنعةُ الّتي تَرغبُ أنتَ في ممارستِها مستقبلاً؟ ولماذا تُفضِّلُها على غيرِها؟

3 أتظُنُّ أنّ في لبنانَ قرىً لم تصلْ إليْها مياهُ الشُّربِ في القساطلِ، حتّى اليومِ؟ حاوِلْ أنْ تبحثَ عَنْ هذه القُرى، وتُحدِّدَ في أيِّ مناطِقَ تقعُ.

4 طرحَ المعلّمُ سُليمانُ سؤالاً على نفسِهِ عن العرّافةِ أمِّ فتحي. «أتُراها عرفتْ أجلَها أينَ ينتهي؟» هل يُمكنُكَ أنْ تجيبَهُ عن سؤالِهِ؟ لماذا؟

5 هَل تؤمِنُ بأنّ المنجّمين والعرّافينَ يمكنُهُم أنْ يعرفوا ما يخبّئُه المستقبَلُ لَهُم وللنّاسِ؟ لماذا؟

6 هَل تُحبُّ أنْ تكونَ لكَ أرضٌ تزرعُها وتَستثمِرُها؟ لماذا؟

7 إذا كانَ جوابُكَ عنِ السّؤالِ السّابقِ بالإيجابِ، فما أنواعُ الزّراعاتِ الّتي تزيِّنُ بها أرضَكَ؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1 استخرِجْ من القصّةِ الأدواتِ والموادَّ الّتي يَستعمِلُها السّكريُّ في صنعتِهِ.

2. «اثنانِ... أربعةٌ... ستّةٌ... عَشَرَةُ رجالٍ...»

ضعْ مكانَ الرّجالِ نساءً، ثمّ أعِدْ كتابةَ الجملةِ مراعياً قاعدةَ العددِ، وضابطاً ما كتَبْتَهُ بالشّكلِ التّامِّ.

3 «وجهُ أبيهِ لم تطمُسْهُ السّنواتُ. إنّهُ يُشرقُ خلالَ غُبارِ الزّمنِ المتبلّدِ، بقَسَماتِهِ القاسيةِ، وأنفهِ الكبيرِ الّذي نما تحتهُ شاربٌ كالغابةِ. وكأنَّ الوالدَ يشدُّ يدَ ابنِهِ بعُنفٍ»
حوِّلْ هذهِ الفقرةَ إلى صيغةِ الجمعِ، مغيِّراً ما يَلزمُ تغييرُهُ.

4 حوِّلْ أفعالَ الفقرةِ التّاليةِ إلى الزّمنِ الماضي: «الخُطوطُ تزدادُ بكثرةٍ... وتتدفّقُ... وتَطغى بإيقاعِها على أفكارِهِ المتشرّدةِ».

5 في العبارةِ الأخيرةِ مِنَ القصّةِ، ثلاثُ صُوَرٍ بيانيّةٍ: كنايةٌ وتشبيهٌ واستعارةٌ؛ فصِّلْها واشرحْ كلّاً منْها، ثمّ أبدِ فيها رأيَكَ.

5 القاتِلُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 أشابٌّ المتحدّثُ في هذهِ القصّةِ أمْ شيخٌ؟ ما العباراتُ والأوصافُ الّتي تُبيّنُ حالتَهُ وعمرَهُ؟

2 «الأيّامُ هُنا تسيرُ ببُطءٍ وبلاهةٍ، وليسَ إلّا الدّولابُ يُسرعُ»؛ ماذا عَنى الرّجلُ بهذهِ العبارةِ؟ وعلامَ كانَ يتكلّمُ؟

3 ألِأنَّ الرّجلَ ثرثارٌ استرسلَ في سردِ أخبارِهِ على الكاتبِ، على زعمِ أنّهُ لا يعرفُهُ، أمْ لسببٍ آخرَ؟ لتكُنْ إجابتُكَ واضحةً ومُقنعةً.

4 في المقاطعِ الأخيرةِ من القصّةِ، وصفٌ دقيقٌ لحالةِ المُدمنِ على القِمارِ؛ بيِّنْ هذهِ الحالةَ، مُبدياً رأيَكَ في المقامرينَ.

5 ما علاقةُ المتحدّثِ في القصّةِ، بيوسُفَ المحرِ؟ وكيفَ قتلَهُ؟

2 مِن وَحْيِ النَّصِّ

1. فتِّشْ في المُعجمِ (القاموس) عن معنى «القِمارِ»، ثمّ عدِّدْ مجموعةً مِن ألعابِهِ الّتي تعرِفُها أو تسمَعُ عنْها.
2. أقِمْ مقابلةً بينَ «الحُمَيْزةِ» كما وصفَها الرّجلُ في القصّةِ، وبين ما تعرِفُهُ أو تسمَعُهُ عنْها اليومَ.
3. لو كنتَ مكانَ الكاتبِ، فهل كنتَ أصغَيْتَ إلى الرَّجلِ حتّى نهايةِ قصّتِه، كما فعلَ الكاتبُ؟ لماذا؟
4. لماذا تَحتاجُ نوادي ألعابِ القِمارِ إلى حراسةٍ وحمايةٍ؟
5. أتُحبُّ أنتَ أنْ تعيشَ في بَحبوحةٍ؟ لماذا؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. اكتُبْ عهداً على نفسِكَ، وتُجاهَ من تُحبُّ، أنّكَ لن تتعاطى القِمارَ يوماً، ولَن تَتعلّقَ به أو تُدمِنَهُ، ذاكراً الأسبابَ.
2. أعِدْ صياغةَ الفقرةِ التّاليةِ، بِلُغتكَ أنتَ:

«واجتهد حتّى يزدرد ريقَهُ، وجرابُ الشَّرِر تتنافرُ مِن دائرتَيْ عينَيْهِ الدّاميتينِ، وتجاعيدُ وجهِهِ تُجالدُ زحفَ السّنينَ».

3. «قاوَمَ جَفناهُ المطبِقانِ أثقالَ التّعبِ والسّهرِ والسّنينَ».

- «أغضَبُ، أُشاكِسُ، أُجَنُّ».
- «ضَحِكْتُ ومرِحْتُ ووزَّعْتُ على الأولادِ ما فيه النّصيبُ».

«جوُّ البيتِ أصبحَ يُضايِقُني ويمزِّقُني ويُشعِرُني بشَبحِ الأيّامِ الماضيةِ».

في كلٍّ مِن هَذه العباراتِ، حشَدَ الكاتِبُ على لسانِ الرَّجُلِ مجموعةً مِنَ الأسماءِ أوِ الأفعالِ المتلاحقةِ، وهَذا ما نسمّيه

أسلوبَ «الحشد اللّفظيّ»، فما أهمّيّةُ هذا الأسلوب في التّعبير عَنِ المَعنى؟

4. «ثمّ قالَ بَينَ ضحكةٍ صفراءَ، وتنفُّسٍ كقفزِ الأرنب».
في هذه العبارةِ استعارةٌ وتشبيهٌ، دلَّ عليهما وبيّن الفكرةَ الّتي تضمّنَها كلٌّ منهما.

5. حوّلِ العبارةَ التّاليةَ إلى صيغةِ المفرد، مغيّراً ما يلزمُ تغييرُهُ:
«إنّ عيونَ الحسانِ كانتْ تُبصْبِصُ عليَّ عبرَ شبابيكِ الشُّرُفات، إذ تناهى إلى أسماعهِنَّ في الخُدورِ وقْعُ حوافرِ فرسي»

6. ما إعرابُ الكلماتِ الّتي تحتَها خطٌّ، في ما يلي:
أنا مُمتطٍ وراءَه حصاني، وعَيناي تطوفانِ على الشّارعِ، أنظرُ إلى النّاسِ من فوقُ، مثلَ النّسرِ المُدِلّ.

غلبةُ الذّكريات

1 في الفَهمِ والتّحليل

1. «لَمْ أكُنْ أعرِفُ أنّ جدّي يَنتظرُ مِن دهرِهِ شيئاً، بعدما رماهُ الدّهرُ بأفجعِ ما يُرمى به رجلٌ في مثلِ سنِّه».
ما الفاجعةُ الّتي رمى بها الدّهرُ جدَّ الكاتب؟ ولِمَ ظنَّ الكاتبُ أنّ جدَّهُ ما كانَ لينتظرَ مِن دهرِهِ شيئاً؟

2. لِمَ شبّهَ الكاتبُ بيتَ جدِّهِ بالعُلبةِ؟ وهَل لهذا التّشبيهِ علاقةٌ بعنوانِ القصّةِ؟ كيفَ هذا؟

3. ما الفرَحُ الّذي كانَ الجدُّ يتوقّعُهُ، في رأيك؟ أجبْ مُعلِّلاً.

4. ما الكلمةُ الّتي تفوّهَ بها عنترُ الرّمادِ عَن غيرِ قصدٍ، وأزعجتِ الشّيخَ؟ ولماذا أزعجتْهُ؟

5. هَل كانَ الكاتبُ وأخوهُ يُحبّانِ الذّهابَ إلى بيتِ جدِّهما؟ لماذا؟ وأينَ ظهرَ لكَ هذا؟

6. يُقالُ إنّ أعمى البَصَرِ يُعوِّضُه اللهُ بتَفتُّحِ بصيرتِه؛ هَل رأيْتَ في أحدِ مشاهدِ القصّةِ ما يؤكِّدُ صحّةَ هذا القولِ؟ وضِّحْ إجابتَكَ.

7. مَن قتلَ رئيسَ العِصابةِ، في تقديرِكَ؟ ولماذا قتلَهُ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1. هَل جدّاكَ لِأبيكَ وأمّكَ على قيدِ الحياةِ؟ هَل تُحبُّ زيارتَهُما؟ وهَل تُفضِّلُ أحدَهُما على الآخرِ؟ لماذا؟

2. هَل تعرِفُ ما الفَرقُ بَينَ اللّقَبِ والكُنيةِ؟ كانَ صديقُ الشّيخِ يُدعى أبا رامزٍ وعنترَ الزّمانِ؛ أيٌّ مِن هَذَينِ الاسمَيْنِ هو اللّقبُ، وأيٌّ هو الكُنيةُ؟

3. إذا خُيِّرْتَ بَينَ بيتٍ بَحريٍّ وبيتٍ جبليٍّ، فأيُّهُما تختارُ؟ ولماذا؟

4. وردَ في القصّةِ بعضُ ممّا يُخزَّنُ مِن المونةِ في اليوكِ؛ هَل بإمكانِكَ أنْ تُضيفَ إلى هَذه الأصنافِ أصنافاً أُخرى مِن المونةِ في القُرى؟

5. هَل تُحبِّذُ أنتَ الأخذَ بالثّأرِ؟ لماذا؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. لِيَبْحثوا، لِتُبعِدْهُ مِن هُنا، لِيأتوا، ما هَذه اللّام في أوّلِ كلٍّ من هَذه الأفعالِ؟ ولِمَ سُمّيَتْ هَكذا؟ وما تأثيرُها على الفعلِ المضارعِ؟

2. وردَتْ في هَذه القصّةِ تشابيهُ كثيرةٌ؛ فتّشْ عَن خمسةٍ منْها، واشرَحْها مُظهِراً الفكرةَ الّتي عبّرَ عنها كلُّ تشبيهٍ.

3. «لعلّهُ أخرسُ لا يتكلّمُ، أو أصمٌّ لا يسمعُ».

حوّلْ هَذه العبارة إلى صيغةِ المثنّى ثمَّ إلى صيغةِ الجمعِ؛ بعدئذٍ حوّلْها إلى صيغةِ المؤنّثِ المفردِ فالمثنّى فالجَمعِ، مغيّراً ما يلزمُ تَغييرُهُ.

4. فصّلْ إعرابَ ما يلي:

عمّي! ما العملُ؟ لعلّهُم يأتونَ هُنا للبحثِ عَنْه.

5. أقِمْ حواراً بينَ الشّيخِ أبي صبحي وصديقِهِ أبي رامزٍ في إحدى العشيّاتِ، تَتخيّلُ فيه ما دارَ بينَهما مِن حديثٍ، كانَ الكاتبُ وأخوهُ يُصغيان إلَيْهِ بفضولٍ، مُحاولَينِ فهمَ مضمونِ هَذا الحديثِ.

محتوى الكتاب

قِصصٌ قَصيرةٌ